فَضِيلَةُ العَلَّامَةِ الإِنْسَانِي الكَبِير

محمد أمين شيخو

(قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ)

جَمَعَهُ وَحَقَّقَهُ فَضِيلَةُ المُرَبِّي الأُسْتَاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

ابن محدّث دمشق الأكبر الشيخ محمد الديراني

المَدَارِسُ العُلْيَا لِلتَّقْوَى

دُرَرُ الأَحْكَامِ

في شرح أركان الإسلام



المدارس العليا للتقوى

درر الأحكام في شرح أركان الإسلام

§§§§

لفضيلة العلامة الإنساني الكبير
محمد أمين شيخو
قدَّس الله سرّه

§§§§

جمعه وحققه المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

§§§§

Published by
Amin-sheikho.com

موقعنا على شبكة الإنترنت:
www.amin-sheikho.com
info@amin-sheikho.com

فهرس المحتويات

الإيمان

أَوَّل المَدَارِس العُليَا لِلتَّقوى

مقدمة

الإيمان كمال الإنسانية

لا شك ولا ريب أنَّ الإنسان أوَّل ما يخرج إلى هذا الكون من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وقد جعل له تعالى السمع والبصر والفؤاد، فإذا ما كبر وبدأ يُدرك ما حوله وأخذ يتعرَّف إلى الأشياء فيتفحصها ويقلِّبها ويسبر مدى مقاومتها ومدى قوته في التغلُّب عليها وجعل يصدمها بعضها ببعض ليتعرَّف إلى أصواتها وتأثيراتها ببعضها بعضاً، ثم ينمو إدراكه ويبدأ يميِّز فيتطلَّع إلى السماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم متلألئة، وينظر إلى الأرض وما عليها من بحار وأنهار وجبال وإنسان وحيوان فيتساءل لماذا تلمع النجوم؟ ومن أين تأتي الغيوم؟ وأين تذهب الشمس في المساء؟ وقد يصل به الأمر فيسأل عن الله تعالى فيقول أين الله؟ حقّاً أين الله! وقد يذهب بالبعض الحال لأن يسأل هل له عينان فيرى، وهل له آذان فيسمع، أم هل له يد فيبطش، أم هل له رِجلان فيمشي عليهما! هل له جسم، أم لا؛ فهل يأكل أو يشرب، هل يُرى.. أين هو؟ ما هو الله، ما ماهيته، فهل شاهده أحد؟ حقّاً هل يُشهد ويُرى.. من رآه؟

ليس السؤال عن الآثار، بل عن ذات الله، ما الذات الإلّهية، وأين هو حقّاً موجود؟!

أجيبونا بعلم أيها المؤمنون!

هكذا قال الشاعر الإنكليزي الكبير "ويليام شكسبير"..

كانت تساؤلاته تدور حول ماهية الإلّه قوله: إذا لم تكن له عينان ويدان ورِجلان ولا يسمع صوته أحد ولا يُرى، فهل هو وهمٌ. نحن نريد أن نعيش بالمحسوس الملموس لا بالأوهام، هل ننكر المحسوس الملموس والواقع لنعيش بتصورات وتخيُّلات.. عندها هَجَرَ الدين. هل نعبد ما لا نرى ولا نسمع.

الإيمان: الإيمان شهود وحقيقة، ودين الإسلام دين حقائق.. الإيمان الحق الشهودي علم نفسي وشهود يقيني تشهده النفس في ذاتها وتعقل الوجود الإلّهي في سرِّها فإذا هو حقيقة يقينية مستقرَّة فيها تخالطها وتمازجها ولا تنفكُّ أبداً عنها.

الإيمان حقيقة نفسية معنوية تبدأ شهوداً بالعين لآيات صنع وعظمة منشئ الأكوان ومحيي الكائنات الحية ومميتها، تصل بعدها نفس طالب الإلّه لأنوار الإلّه العظيم وتشاهد جماله الساري على الوجود والورود والأزهار والكائنات الفاتنات والتي هي أثر بسيط من جلال جماله تعالى.. فكلُّ روعةٍ وفتنة انعكاس من إمدادات جماله الصاعق. وتشاهد عظمته ووسعته تعالى من خلال عظمة الجبال الشاهقات المستعليات الراسخات ووسعة صنعه بالبحار والسموات.

الإيمان الصحيح لا يأتينا من غيرنا، بل إنما ينبعث في قرارة نفوسنا ويتولَّد في قلوبنا. الإيمان حقيقة معنوية تسري في نفوس طالبي الحق تعالى والحقيقة المجرَّدة والدين الحق.. تسري سريان الكهرباء في الأسلاك والماء في الأغصان والحياة في الأجساد، يُشرق في

النفوس فتشعُّ فيها نور المعرفة وعلم اليقين والحياة العلوية السامية المنعكسة على الأجساد فلا شقاء بعدها ولا نكد، لا خوف ولا جبن.. لا ذلة ولا مسكنة، لا خشية في الحق للومة لائم، فكلُّ ما على التراب تراب، لا شهوةً منحطة لها أدنى تأثير على قلبٍ مؤمن إيماناً ذاتياً، بل سموٌّ وعلو، تدلُّ على هذا الإيمان الحق الصفات الحسنة والمعاملات الطيبة الممزوجة بالإنسانية الحقيقية النزيهة المجرَّدة عن الغايات المنحطة وعن المصالح الذاتية والمنافع الدنيوية، كما تدلُّ عليه الأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة التي ترفع شأن المؤمن عند ربِّه وعند الناس، ويشعر به المؤمن في صميمه فيطمئن به قلبه وترتاح به نفسه وتنقشع أمامه الشكوك والشُبَهْ وتنمحي به الظلمات عن القلب فيرى.

العين ترى والقلب يرى.. "العين ترى جمال الدنيا وجمال المراه"، والقلب الخاشع من ذكرى الموت المشاهد لربِّه من آيات صنعه الكونية يرى جلال الله.. عظمة الله.. جمال الله ويستقي بقلبه جمالاً وجلالاً من حضرة الله تتضاءل تجاهه عظمة وجمال وجلال الكائنات المادية بأسرها، فمن شَهِدَ الخالق صَغُرَ المخلوق في عينه؛ فارجع البصر بالآيات كرَّتين يا موقن بلقاء ربِّك ينقلبْ إليك البصر ومشاهداته وهي خاسئة والبصر حسير.

المشاهدة الحقيقية بعين البصيرة لا بعين البصر، والإيمان شهود: أشهد أن لا إلّه إلاَّ الله، فمن خافت نفسه على مستقبله وحسب حساب الانتقال ومواراة جسده بالقبر ليسأل نفسه: هل توصَّلَتْ إلى هذا الإيمان الصحيح، وهل هي سلكت وتابعت خطواتهِ ومراحلَه واحدة إثر أخرى من النظر الجدِّي بالموت وما بعده، وبالسماء وآياتها، ثم بالغيوم والرياح والأنهار والجبال... فإن فعلت وصلت وإلاَّ فاستمع لإرشاد أهل الاتصال والوصول بالأصول يُرشدوك.

الإيمان ليس مجرَّد كلام نقله المرء عن الآباء والمعلِّمين والمجتمع نقلاً، بل هو شهود ذاتي وعقل، وما نقله المرء نقلاً ولم يُشاهده فيعقله عقلاً، أي: يشاهده بقلبه، **{قَالَتِ الأعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فِي قُلُوبِكُم..}**[1]: وسيدخل بإذن الله.

فالنقل والإقرار إسلام والشهود بلا إلّه إلا الله إيمان.. والفرق شاسع والبون عظيم. والله تعالى يُدافع عن الذين آمنوا **{..وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنينَ}**[2].. فإن رمت السمو الإنساني والعلو الأبدي فعليك بسلوك طريق الإيمان الذاتي تربَتْ يداك، إذ الإيمان أساس كلّ خير ولا عمل عالٍ وصالحٍ إلاَّ بالإيمان.

فحذار أن تضيّع عمرك بدون الإيمان سدى فتخسر بالشيخوخة وبعد الانتقال لعوالم الحقائق غداً. وكفى بالإنسان سموّاً أن يؤمن، إذ الإيمان كمال الإنسانية.

تقديم المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

---

[1] سورة الحجرات:14.
[2] سورة الروم:47.

الإيمان (شهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله)

أوَّل المدارس العليا للتقوى

يخرج الإنسان أوَّل ما يخرج إلى هذا الكون من بطن أمِّه لا يعلم شيئاً، وقد جعل له الله تعالى السمع والبصر والفؤاد، فإذا ما كبر وبدأ يدرك ما حوله جعل يتعرف إلى الأشياء فيتفحَّصها ويُقلِّبها ويسبر مدى مقاومتها ومدى قوته في التغلُّب عليها وجعل يصدمها بعضها ببعض ليتعرَّف إلى أصواتها وتأثيراتها ببعضها بعضاً، ثم ينمو إدراكه ويبدأ يميِّز فيتطلع إلى السماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم متلألئة وينظر إلى الأرض وما عليها من بحار وأنهار وجبال وإنسان وحيوان فيتساءل لماذا تلمع النجوم؟ ومن أين تجيء الغيوم؟ وأين تذهب الشمس في المساء؟ وقد يصل به الأمر فيسأل عن الله تعالى فيقول: أين الله... إلى غير ذلك من الأسئلة التي يريد أن يتعرف منها إلى هذا الكون، لا بل إلى موجد هذا الكون ومبدع ما فيه. تُرى من الذي يلقِّن هذه الأسئلة للطفل، أم من الذي يوجهها إليه؟ لا ريب أن هناك صوتاً خفياً ينبض في قرارة نفسه بين الحين والحين، إنه صوت الملَكْ، يرسله الله تعالى إلى هذا الصغير يناديه في سرِّه لتحيل النفس هذه المشاكل الجديدة، وتطرح هذه الأسئلة على الفكر، ذلك الجهاز الذي أودعه الله تعالى في الإنسان، لتصل النفس بواسطته إلى معرفة الحقائق، وتتعرَّف إلى كل ما يحيط بها فتدركه وتعقله وهنالك تطمئن بما وصلت إليه عن طريقه من علم وترتاح إليه. وبمثل هذه الأسئلة التي يلقيها الملك في نفس ذلك الطفل تبدأ دواليب هذا الجهاز بالعمل وتأخذ خلاياه بالنمو وأجزاؤه بالتكامل يوماً إثر يوم وعاماً بعد عام، وما يزال كذلك آخذاً بالنمو حتى يصل هذا الطفل إلى سن الرشد حيث النضج وحيث القدرة التامة على الوصول إلى الحقيقة ومعرفة الخالق المبدع والرب الممد.

فإذا نظر الإنسان وقد بلغ هذه السن إلى تركيب جسمه البديع، وصورته البالغة في الكمال أعظم حدّ من الدقة والتنظيم، ودقَّق في كل عضو من أعضائه وما قامت عليه أجهزة جسمه من نظام، وفكَّر فيما بينها من ترابط، وما هي فيه من حركة دائمة وعمل وظيفي وأنها تعمل كلها متضافرة متعاونة بنظام متَّسق لتوفر لهذا الجسم البقاء ودوام الوجود والنماء، وإن شئت فقل لهذا العالم الذي هو وحدة في ذاته. أقول: إذا نظر هذا الإنسان إلى جسمه هذه النظرات، وفكَّر هذا التفكير، ثم رجع إلى أصله يوم كان نطفة من مني يُمنى يوم أودع في رحم أمِّه فما كان شيئاً مذكوراً، ما كانت له هذه الشخصية ولا هذه المكانة والمرتبة، ولا هذا الجسم المنظَّم، ولا ذلك الترتيب. إذا نظر الإنسان هاتين النظرتين: نظرة إلى الحاضر العتيد، ونظرة إلى الماضي، وجمع بين هذين الحالين بالمقارنة والتساؤل والمحاكمة فلا ريب أنَّ تفكيره يهديه وسرعان ما يهديه إلى أن هنالك يداً قديرة كوَّنته إنساناً سوياً، وخلقته هذا الخلق البديع وأشرفت وما تزال مشرفة عليه. وما تزال هذه النفس تمعن في التفكير بهذه النقطة وتجول في هذا المجال شوطاً بعد شوط حتى تتحقق بهذه الحقيقة ويغدو ذلك لديها أمراً بديهياً لا يحتاج إلى مناقشة أو برهان أو دليل. وهكذا فأصل الإنسان وخروجه إلى الدنيا قضية ذات شأن تستدعي التأمل وتستثير التفكير.

وكذلك وكما الخروج إلى الدنيا قضية ذات شأن، فالخروج منها قضية أبلغ شأناً وأعمق في النفس أثراً.. فبينما نحن مع من نحب وبينما هو يعمل ويكد وفيما نحن نأمل في حياتنا معه آمالاً جساماً ونعدُّ لمستقبلنا عدة ونحلم أحلاماً ذهبية إذ به كالمصباح تهب عليه عاصفة من ريح فتطفئ شعلته وتخمد حركته وتدعه جثة هامدة وجسداً خامداً.. فأين المصباح وأين الضياء.. وأين الحركة.. والحديث والآمال وأين البنات والبنين والأطفال. لقد انطفأت الشعلة وخمدت الحركة وهدأت العاصفة ومات هذا الإنسان. وهنا وبمشاهدة النفس هذا المشهد من غيرها تدور دواليب هذا الفكر دوراناً من نوع آخر وهو وإن كان يغاير دورانها الأول ويختلف عنه من حيث المجال والكيفية غير أنه يتفق معه في النتيجة والغاية كل الاتفاق فتعلم هذه النفس أن تلك اليد التي أنشأتها وأبدعتها وأخرجتها إلى هذا الوجود ووهبتها الحياة لا بد لها في يوم من الأيام مهما طال بها الأمد وامتد الزمان من أن تسترد وديعتها وتأخذ أمانتها ومهما طمعت بالبقاء وحاولت البقاء فلا بقاء فالمدة مؤقتة والعارية مستردَّة وأن مع القوة ضعفاً ومع الفرح حزناً ومع الحياة موتاً محتماً وإذا حلَّ الموت وأحاط فلا فوت ولا مناص. قال تعالى: **{وَلَو تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ}**[3].

{فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، وأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ}[4].

وبمثل هذا الحال تخاف النفس وترهب وتلتجئ إلى الفكر تطلب إليه التعرُّف على تلك اليد التي أنشأتها وبرأتها، والتي ألقتها في هذا الوجود وأخرجتها، والتي إذا هي شاءت استردَّت وديعتها وتوفَّتها. وهنا يتَّسع مجال التفكير ويتجاوز الإنسان حدود ذاته ويبدأ يفكِّر فيما حوله من آيات هذا الكون من شمس وقمر ونجوم وجبال وأنهار وبحار وحيوان ونبات وليل ونهار وفصول أربعة ورياح وسحب ورعود وبروق وأمطار.

ينظر الإنسان في هذا الكون العظيم نظرات عميقات فيرى أن كل ما في الكون يعمل ويسير لكنه إنما يعمل وفق نظام وقانون. وفق قانون شامل ونظام عام والكون كله إنما هو وحدة تسيطر عليه وتسيِّره قوة وإرادة واحدة ضمن علم وحكمة وقدرة ورحمة. ينظر الإنسان في هذا الكون هذه النظرة ويرجع إلى نفسه فيجد أنه جزء صغير في هذا الكون وأنه مشمول أيضاً بهذا النظام، فهذه الأرض العظيمة السابحة في هذا الخضم الواسع اللامتناهي مرتبطة بالشمس والقمر والنجوم، وما هذه الأجرام كلها وما هذه الموجودات جميعها إلا خاضعات لتلك الإرادة العليا والقوة اللامتناهية التي تشرف عليها جميعها وتسيِّرها كلها.

وبالوصول إلى هذه النقطة وبلوغ هذه المشاهدة وإن شئت فقل: بمشاهدة أن لا إلَه إلا الله والإيمان بالله يتولَّد في النفس شعور بالعظمة، وتحصل لها الخشية من تلك الإرادة العليا المهيمنة على هذا الكون، والمسيِّرة له ضمن العلم والحكمة والقدرة والرحمة فلا يستطيع

---

[3] سورة سبأ:51.

[4] سورة الواقعة:83-85.

هذا الإنسان من بعدُ أن يتعرّض بالسوء لأحد من بني الإنسان مهما تكن صفته ومهما تكن درجة قرابته، ولا يجرؤ على إيذاء مخلوق من المخلوقات لأن كل ما في الكون من مخلوقات إنما هو نسيج هذه الذات العلية.

فتجد هذا الإنسان أضحى مستقيماً بالمعاملة مع جميع الخلق، وتجرّه الاستقامة هذه إلى الثقة بأن الله راضٍ عنه فيقبل عليه، فبهذا الإقبال والوجهة تشتق النفس من الله تعالى كمالاً، تلك هي الصلاة في حقيقتها، وتلك هي الصلاة التي يجب أن تقيمها وتسعى إليها، وإنك لتجد النفس إذا وصلت إلى هذه الصلاة وبلغت هذا الحال لا تعود تميل إلى الدنيا وما فيها من الشهوات الدنيئة وتعاف ما في الدنيا مما سوى فعل المعروف والإحسان. لقد اصطبغت بصبغة من الله ومن أحسن من الله صبغة.

على أنك قد تعجب من نفسك أيها القارئ وتقول: مالي أصلِّي ولا أجد طعماً للصلاة، وأصوم ولا أصلُ لما يهدف إليه الصيام من غايات، وكم مرة حججت فما عرفت من الحج إلا جملة أدعية وأذكار ومراسم وأشكال وزيارات وركوب مشقَّات، وتصدَّقت بما تصدقت وأنا لا أتصدَّق عن طيب نفس ولا أنفق إلا كارهاً خائفاً الفقر!!

وأسمع بالمؤذن يؤذِّن فلا أجد للأذان حلاوة!! ولا في سماع القرآن طلاوة! ولست أدرك منه ما فيه من معانٍ عالية كما تقولون. ولا أجد فيه ترابطاً بين الآيات، ولست أدري من أحاديثه عن الأمم السابقة إلاَّ أنها مجرد قصص وحكايات، وأنا لا أفهمه بذاتي بل لابد لي من تفسير ألجأ إليه يترجم لي عن معانيه ومع ذلك كله فكثيراً ما أنسى هذه الترجمة، وكثيراً ما لا أدرك معنى التفسير ذاته، ولا أفقه شيئاً من ذلك الترجمان؟؟

فأجيبك على قولك هذا وأقول: لا تعجب يا أخي من قولك هذا ولا تستغربن ما أنت فيه فأكثر الناس يصلُّون ولا يدركون من الصلاة إلا أنها مجرد أقوال وأفعال مبتدأة بالتكبير منتهية بالتسليم، وأنها من أحسن الرياضات الجسمية وأنها أمر تعبدي أمر به الله تعالى الإنسان ليقدّم واجب الخضوع لخالقه في اليوم والليلة خمس مرات. ويعرّفون الصوم بأنه ترك الطعام والشراب وسائر المفطرات بنيّة من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، وأنه يشعر الغني بألم الجوع الذي يكابده الفقير، وأنه يُذهب بالأمراض ويفيد الصحة إلى حد كبير.

وأن الحج زيارة أمكنة مخصوصة في أشهر مخصوصة، وأنه مؤتمر عام يجمع المسلمين يتدارسون الأوضاع ويتعارفون ويرسمون الخطط السياسية التي تجعلهم يهنؤون في العيش ويردُّون عدوان المعتدين، ويحسبون الزكاة بأنها تأدية مالية بنسبة معينة يقدّمها الغني للفقير، وهكذا تراهم يضعون حدوداً وأشكالاً من التعاريف، وتجد الكثيرين يقومون مثلك بهذه العبادات والأشكال والمراسيم، ويكرِّرون ويعيدون ما يسمعونه يحسبونه الإسلام وما هو من الإسلام في شيء، فما أمرك خالقك بالصلاة لِتُقدِّم واجب الخضوع.. فهو سبحانه غني عن العالمين، وهو أعزُّ وأكبر من أن يتطلَّب من هذا الإنسان أن يعترف بوحدانيته وأن يقدِّم الخضوع إليه، وهو أرحم بالإنسان من أن يأمره بالصوم شهراً كاملاً وأن يفصله عن أهله يركب المشقات والأخطار، ويطوف حول الكعبة وينادي بأعلى صوته

مبتهلاً بالدعاء ليحصل على الغفران. ولو يشاء لأغنى الفقير ولمَا طلب من الغني زكاة ولا صدقة وما هو بحاجة لك لتطعم من لو يشاء الله أطعمه وما هذه الأوامر كلها إلا أوامر من مستوى عالٍ وضعت لإنسان وصل لمستوى عالٍ ذاك هو يعقلها ويدرك أسرارها، ويقدِّر فضل خالقه الذي أمره بها، فتراه يصلي ساجداً وهو يتمنى أن يظل العمر ساجداً وهو في حقيقته ساجدٌ دوماً لله لا يرفع رأسه ولا ينقطع عن السجود. ويصوم وينقضي رمضان فتراه يبكي متطلباً من الله تعالى أن يهبه عمراً يصوم به رمضان ثانيةً لما وَجَدتْه نفسه في الصيام من سموٍ وما وصلت إليه في منازل العلم والمعرفة وهي حقيقة التقوى من مراتب ودرجات.

ويحج ويعود من الحج إنساناً قد أرخت إليه المعرفة زمامها فأضحى بصيراً مشاهداً عارفاً بماهية الحياة وأسرارها.. فلم الحياة؟ وكيف الحياة؟ ومتى تدوم؟ وما الشرائع؟ وما الكون؟ وأين هي سعادة المخلوق؟ كيف ينالها؟ وكيف تكون؟

ويزكِّي فيجد في الزكاة مغنماً، وفضلاً كبيراً فيشكر المعطي الأول ويستغرق في حمده سابحاً في فضله، فهو وحده المعطي وهو المتفضل وكل الفضل منه وإليه يعود.

ويقول لا إلّه إلا الله فيشهد معناها شهوداً نفسياً. فإذا قال بلسانه أشهد: فما اللسان إلاَّ ترجمان ما شَهدتْهُ نفسه وعاينته من الحنان وعطف تلك اليد التي تسيِّر الكون كله غامرةً إياه بفيض من التلطف والرأفة والرحمة والحنان والفضل والإحسان. وكلما كررها اللسان مرة أذكى القول الشعلة في النفس فأضاءت واتَّقدت، وأضافت النفس إلى شهودها شهوداً والله أكبر ولا نهاية ولا حدَّ لذلك الشهود والعلم به ولا انتهاء.

أمَّا رسول الله ﷺ فما أعظم رسول الله في الحقيقة وأجلَّ مقامه عند هذا الإنسان، إنه السيد الأعظم الذي فاز بالقرب من الله بأعلى منزلةٍ وأسمى مقام.. المؤمنون جميعاً مؤتمّون به وتحت لوائه، وهم أبداً في صلة دائمية معه وهو الداخل بهم على الله، وهو الأول في هذا المجال وهو الإمام. فيا سعادة النفس إذا هي صلَّت به، واتَّصلت بهذه النفس الطاهرة، فكانت بمعية الحضرة الإلّهية والإقبال على الله.

تلك معانٍ يشعر بها هذا الإنسان حال إقباله على الله، من شهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وصومٍ، وصلاةٍ، وحجٍّ، وزكاةٍ، يشعر بها هذا الإنسان فتطير نفسه شعاعاً وكثيراً ما تفنى عن ذاتها مستغرقة بهذا الشعور ثم تعود وهي أسمى ما تكون علماً وأكثر مما كانت عليه معرفة وأعظم لله تعالى حمداً وشكراً. وهي أبداً في سعادة وهي أبداً في ارتقاء وهي أبداً في حياة طيبة غفل عنها كثير من الناس فظنوا الأوامر الإلّهية أموراً تعبدية وحسبوها تقديماً لواجب الخضوع، ونسوا حظاً مما ذكِّروا به فضلّوا عن السعادة، وأضلوا كثيراً.

والسبب في ذلك كله أن هذه الأوامر التي جاء بها سيد الخلق والمرسلين مُبلِّغاً إياها عن رب العالمين، إنما هي مدرسة عليا خاصة بالمؤمنين وليس يفقه دروسها إلا من سمت به همَّته فتدرَّج فيما سبقها من الدراسة في مدرستين اثنتين تحضيريتين.

وإذا نحن أردنا أن نسمي هذه المدرسة العليا بالجامعة، فما المدرستان السابقتان سوى الابتدائية والثانوية وهل يمكن لمن لم ينتسب للثانوية والابتدائية أن ينتسب رأساً للجامعة! أم ماذا يكون حاله إذا دخل صفاً من صفوفها وانخرط بين طلابها، فهل تجد له وعياً وهل تجده يفقه من ذلك المعلم العظيم قولاً، وهل يستطيع أن يجد بين أقواله انسجاماً أو يفقه لأقواله تفسيراً أو تأويلاً، وهل هو بمقدِّر لهذا المعلم العظيم وعارف فضل أولئك الطلاب في ذلك المعهد العالي الرفيع!!

إن كلَّ ما يقوم به هؤلاء من أعمال ومهمات إن هو في نظره إلا مجرّد أقوال وأفعال، فالصلة والالتفات إلى ذلك المعلم العظيم أسر وبدعة وقيود وهو لا يحب الأسرَ ولا البدعة ولا القيود. والصوم جوعٌ وعطش وخمول والمجيء إلى هذا المعهد أهوال ومغامرات وركوب مشقات. قال تعالى: **{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ}**[5].

نعم وما ذلك كله إلا لأن هذا الطالب طَفَر طَفْرَةً واحدةً فدخل الجامعة ولمَّا يستعدّ لها. وكذلك المدرسة التي جاء يدعو لها رسول الله ﷺ إنها معهد من سوية عالية وهي في الحقيقة جامعة. لكنها تختلف عما سواها من الجامعات إذ لها بداية وليس لصفوفها حدٌّ ولا انتهاء. ولا بدَّ لك حتى تعرف عظمتها وتدرك قدر رئيسها الأول وتفهم كلامه ﷺ وتفقه بيانه من أن تعدَّ نفسك إعداداً صحيحاً بالانتساب إلى المدرستين السابقتين اللتين أشرنا إليهما من قبل وسنكرر لك القول ونعيده فنذكِّرك والذكرى تنفع المؤمنين فنقول: إن هذا الصوم الذي جاء به رسول الله ﷺ لابدَّ له من صومٍ يسبقه ولابدَّ لتلك الصلاة التي أمرنا بها عن لسان الله تعالى من صلاة قبلها تتقدمها وتمهد لها.

وكذلك الحج والزكاة، وأقول لك وحقاً ما أقول إن حديث «**بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحجُّ البيت من استطاع إليه سبيلاً**»[6].. إنما هو حديث شريف يعرِّفك بصفوف الدراسة في الجامعة العليا ومراحلها. ولست بمستطيع أن تدرك ممَّا جاء بها شيئاً، ولا أن تفقه سرَّ ما ورد فيه ولا أن تتذوق طعم ما أشار إليه، إلاَّ إذا أعددت نفسك إعداداً تاماً، ووصلت بها إلى سوية رفيعة.. فإذا شهدت أن لا إلّه إلا الله وأتْبعت ذلك بصوم وصلاة وزكاة وحج فعندئذٍ تكون أهلاً لأن تشهد أنَّ محمداً رسول الله وتستطيع أن تدخل تلك الجامعة وتتَّصل بذلك المعلم العظيم الذي يعلِّمك الصلاة والصيام والزكاة والحج. وتتابع الدراسة متعرفاً إلى حديث بُني الإسلام على خمس فتكون من أهل التقوى وأهل المعرفة بالله. قال تعالى: **{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ}**[7].

وقد تعجب من ترتيبي الذي عرضته لك. إذ بدأت بشهادة أن لا إلّه إلا الله وأتبعتها بصوم وصلاة وزكاة وحج ثم ختمت ذلك بشهادة أن محمداً رسول الله، ثم قلت إن السير على

---

[5] سورة البقرة:171.
[6] رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.
[7] سورة محمد:17.

هذا يصل بالإنسان إلى الدخول في تلك الجامعة العليا ومتابعة الدراسة فيها. والحقيقة أني ما أردت بترتيب الصوم والصلاة والزكاة والحج ما ورد في الحديث الشريف، إنما مبادئ ودروس ترتكز عليها تلك الصلاة والصيام وغير ذلك من الأعمال التي جاء بها السيد الأعظم ﷺ.

فإذا بلغ الإنسان من الطفولة مرحلة التمييز ودارت دواليب الفكر لديه فتعرَّف على الخالق الذي خلقه وجعله على هذا التركيب وأنهى الدراسة الأولى في التعرّف إلى الخالق، والإدراك عن طريق الفكر أن هذا الجسم المنظَّم لا بدَّ له من منظِّم ووصل إلى سن البلوغ وقد عرف هذه الحقيقة وثبتت لديه، فهنالك وبتفكيره بالموت وشهوده وقائع عديدة منه ترهب نفسه خائفة وتلتجئ إلى الفكر تطلب منه أن يجدَّ في البحث عن المربي إذ يرى نفسه مخلوقاً ضعيفاً، وأنه بحاجة إلى من يربّيه ويديم إمداده له ويشرف عليه. إنه بحاجة إلى الطعام والشراب، بحاجة إلى الشمس والهواء، بحاجة إلى الثلوج والأمطار، بحاجة إلى الليل والنهار. مفتقرٌ إلى ذلك كله، إذ بدون هذا لا يمكن بقاؤه ولا تدوم حياته، فمن الذي يعنى به هذه العناية ويقدِّم له صنوف هذه الأشياء التي يتوقف عليها بقاؤه في الحياة؟

إنه لابدَّ له من ربٍ ممدٍ يمدّه بهذه الخيرات. وهنا ينتقل إلى صف أعلى فيعرف أن له ربّاً قديراً يمدُّه بما يمدُّهُ به ويحفظ عليه الحياة، ويوسّع الإيمان بالمربي آفاق الفكر لديه فيقول: إذا كان هذا المربي هو الذي ينزل الأمطار ويسوق الرياح والسحاب ويحرك الكرة في الفضاء فيتولد الليل والنهار وينبت الزرع والنبات ويدير الكون كله ليتأمن لي ما أحتاج فهو لاشك المسيّر للكون فالكون كله في جميع ما فيه خاضعٌ له تعالى ومفتقر إليه، وهنا وبالوصول إلى هذه النقطة ينال هذا الإنسان شهادة ثانية وهي شهادة أن لا إلّه إلا الله شهدها قلبه من بعد أن حاكم وناقش فكره وعقلت ذلك نفسه فإذا شهد هذه الشهادة وإن شئت فقل: إذا رأت نفس الإنسان عظمة هذا الكون وشاهدت جلال اليد التي تديره كله في لحظة واحدة دون انقطاع فلا يَعْزُبُ عنها شيء في الأرض ولا في السماء، أقول: إذا شاهدت النفس هذه المشاهدة وإن شئت فقل إذا شهدت النفس أن لا إلّه إلا الله شهوداً معنوياً، وشعرت في أعماقها ذلك الجلال الإلّهي والعظمة فهنالك تحصل لها الخشية من الله، وتحمل هذه الخشية الإنسان على الاستقامة وتحول بينه وبين كل معصية فلا يعود هذا الإنسان يجرؤ على اقتراف إثمٍ أو الوقوع في خطيئة، إذ كيف اتَّجه وحيثما سار وأينما كان يرى الله تعالى معه مشرفاً عليه وناظراً إليه، ولذلك تراه يعامل الناس بمثل ما يحب أن يعاملوه به فلا يستطيع أن يؤذي إنساناً ولا أن يمدَّ يده بالسوء إلى أحد من المخلوقات، وذلك ما عنيناه نحن من الصيام فهو في الحقيقة صوم عن الأذى صوم عن المعصية والفسق والعدوان. وبما أن القوانين الثابتة للنفس البشرية بفطرتها الأزلية عدم الاستقرار والهدوء بل لابدَّ لها من أن تعمل خيراً أم شراً، فهي مفطورةٌ دائماً وأبداً بجبلتها على العمل ولا تستطيع أن تبقى هادئةً لذا فإذا بلغت في عروجها مرحلة الصيام الحقيقي فهي تعمل وكل عمل يصدر عنها وهي في حصن الصوم هو عمل خيّر ينبع منه الإحسان. فهذا العمل العالي يورث في النفس الثقة بإحسانها والثقة برضاء بارئها بارئ السموات العلى عنها.

ويولِّد هذا الصوم عن المحرمات ثقة في النفس برضاء الله عنها فتقبل عليه بكلِّيتها مطمئنة بإحسانها راضية بعملها.

وهنالك تشعر باطنياً بشعور جميل إنه شعورٌ بالقرب من تلك الذات العلية إنه شعورٌ فريدٌ في نوعه شعورٌ ما عهدته النفس من قبل. فما الأغنياء بذهبهم وفضَّتهم وأموالهم، ولا المزارعون في بساتينهم ومزارعهم، ولا المترفون في قصورهم وحدائقهم، ولا الحكام في صولتهم ودولتهم ولا الملوك والأمراء في صولجان ملكهم وإمارتهم أقول ليس هؤلاء جميعاً بأسعد حظّاً من النفس القريبة من ربها، ولو علم هؤلاء بما في هذه النفس من الشعور السامي الجميل لقاتلوا عليه ولتنازلوا عن ملكهم وعما بين أيديهم رغبةً فيه.

فسبحانك ربي ما أجمل القرب منك وما أحلاه وما أجمل الحياة لدى النفس في ساعات قربها من الله. إنه النعيم، إنها السعادة، إنها الحياة الطيبة التي لا يمازجها نغص، إنها الجنة، ولعمري تلك هي الصلاة. وذلك ما عنيناه بكلمة (الصلاة) التي يولّدها الصوم عن المحرمات. وأعتقد الآن أنك أدركت سرَّ ترتيبنا في بدئنا بشهادة أن لا إلّه إلا الله ثم اتباعها بالصيام والصلاة وعرفت ما نعنيه من شهادة أن لا إلّه إلا الله وما نعنيه من الصيام والصلاة.

وبذلك نستطيع أن نتابع ترتيبنا وننتقل بك إلى الزكاة فنقول:

إن هذه الصلة الجميلة، وهذا الشعور السامي الذي نشعره في حال قربنا من الله يجعلنا في الوقت ذاته نكتسب من الله تعالى كمالاً ونصطبغ منه تعالى بصبغة الكمال لأن النفس خلال قربها وحال وجهتها إلى خالقها يسري النور إليها فيطهرها مما بها من جرثوم، ويقضي على ما فيها من انحرافات ويزكّيها ممَّا علق بها من قبل من الميول المنحطة، والدنيء من الشهوات فينقلب هذا الإنسان وهو أصفى ما يكون حالاً، وأطهر قلباً، وأزكى وأنقى نفساً، وذلك ما نعنيه بكلمة (الزكاة).

فإذا ما زكت نفس الإنسان هذه الزكاة بالله وطهرت هذه الطهارة فهنالك لا تعود تحب أن تفعل منكراً، ولا أن تقع في معصية أو خطيئة.

وإذا ما أراد الشيطان أن يغريها بشيء أو يغريها بما في الشهوات الدنيا من جمال وزينة فإنها لا تلتفت إليه ولا تميل بل إنما تردّه خائباً، وتقيم عليه الحجة فلها من كمالها وطهارتها، ولها من زكاتها التي ولدتها صلتها بخالقها ما يجعلها تأنف من كل خطيئة وتعاف كل دنيَّة، وذلك هو الحج الذي نوَّهنا عنه من قبل، وذلك سبب إيرادنا إيَّاه بعد الزكاة، ولعلَّك عرفت سرَّ كلامنا عنه في آخر هذا المجال الذي سننتقل منه إلى شهادة أن محمداً رسول الله حيث الصلة بسيد الخلق والعالمين، وحيث الانتساب إلى معهده العالي الرفيع فنقول: إذا شهد الإنسان أن لا إلّه إلا الله حسبما بيَّناه من قبل، وأدّت به شهادة أن لا إلّه إلا الله إلى صوم وصلاة وزكاة وحج وأصبحت نفس هذا الإنسان من سوية عالية تختلف عمَّا سواها من الأنفس البشرية من حيث تذوّقها معاني الفضيلة، وأنفتها من الرذيلة، وأنس بالله وسعادة بالإقبال عليه، واصطباغ منه تعالى بصبغة الكمال، فهنالك تراه يدأب باحثاً ويجدُّ في طلب

الاجتماع بذلك الرجل وإن شئت فقل بذلك المعلم العظيم الذي فاقه في هذه الآفاق العالية فكان المرشد وكان السابق وكان الأول في هذا المضمار. فلعلك تقول إذا كان هذا الإنسان قد نشأ في بلاد بعيدة ومناطق نائية عن العمران وكان ممن لم يسمع قط بأن هناك إنساناً فاق العالمين في تلك النواحي فكيف يجدّ في طلبه أم كيف يبحث عنه ولا عهد له به، ولا قرأ ولا سمع عنه من أي شخص كان! فأقول وعلى وجه المثال أوضّح ما أقول: هب أن امرءاً أصابه مرض أمضَّه وألزمه الفراش أياماً، ثم اجتمع إلى طبيب فجعل يصف له من العلاجات ما أزال عنه بعض ما به، وانتهت به معالجات هذا الطبيب إلى حدّ لم يستطع معه أن يستأصل العلّة كل الاستئصال وإن كان أصاب بواسطته تقدماً ظاهراً، أفلا تجد هذا الشخص المريض يبحث دوماً ويتطلع إلى أخبار العالم كله ويسأل ويجدُّ في الطلب عن طبيب نطاسي ينال على يديه شفاءً تاماً وبرءاً كليّاً؟؟

لاشك أنه ما يزال يبحث ويفتش حتى يجتمع بذلك الطبيب وهو لابدّ واصل إلى بغيته وأنك لتراه ينفق ما ينفق في سبيل الوصول إليه راضية بذلك نفسه غير مكترث بما يصيبه في هذا السبيل من أتعاب، وما يكابده من مشقَّات. وكذلك الأمر بالنسبة إلى المتعلمين في عصرنا الحاضر فإنك تجد الواحد منهم إذا نال الشهادة الثانوية تتفتَّح لديه آفاق جديدة من المعرفة فتراه يبحث عن الجامعات التي تصل به إلى معرفة وعلم، بل إلى مستوى ثقافي واجتماعي أعلى وأرفع ممّا نال. وما يزال يسأل هذا وذاك حتى يهتدي ويقع على الخبر الصحيح، ثم تراه بعد ذلك يفارق الأهل ويغادر الأوطان، ويركب البحار، ويكابد الأهوال. وكم مرةٍ يتعرض للموت وتحيط به المخاطر في طريقه إلى تلك الجامعة، وتراه مع ذلك كله طيّبةً بذلك نفسه، إذ سيصل إلى ذلك المعهد العالي وسيجتمع بذلك المعلم العظيم الذي ينهض به ويؤمِّن له اجتماعه إليه سوية أرفع ومكانة أسمى وأشرف ممَّا هو عليه الآن. تُرى: هل كان ذلك الإنسان المريض الذي ضربناه لك مثلاً يتساءل ويبحث عن أمهر الأطباء، وما يزال يجدّ حتى يتعرف إليه لو لم تكن به علَّة، ولو لم تكن لديه تلك الحاجة الماسة، والضرورة الملِحَّة وهل كان ذلك الإنسان الثاني الذي ذهب يطلب العلم من تلك الجامعات العالية يهتم في البحث عن تلك الجامعات ويسأل القريب والبعيد عن ذلك المعلم الذي سينهض به؟

وهل تظن أنه كان سيهتدي إليه لو لم يصل إلى تلك السويّة العلمية التي جعلته أهلاً لأن يبحث ويجدّ في طلبه والاجتماع به! وكذلك الإنسان الطالب الوصول إلى التقوى ومعالي منازل الإيمان، كمالُه وصفاؤه النفسي. وأُنسُهُ بالله، وحُبُّه للفضيلة، يجعله يبحثُ ويجدُّ في الطلب، ومن وراء ذلك كله صوت الملك يناديه دوماً في صميمه يا عبد الله لابدَّ من وجود رجل يفوقك فيما أنت فيه، فابحث عنه وجدَّ في طلبه، وإنه والحالة هذه ليصدق وما يزال يصدق ويتحرَّى الطلب حتى يهديه الله، والله يهدي من يشاء الهداية. قال تعالى: **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}**[8].

[8] سورة العنكبوت:69.

ومما يؤيد لك ما قلناه ما رواه الرواة عن إسلام سيّدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه وإنه ليأخذك العجب العجاب حين تسمع بقصة إسلامه المذكورة مفصَّلةً في كتب السيرة فنقول: كيف تسنَّى لرجل من فارس أن يجتمع برسول الله فيؤمن به وينصره ويصبح من أقرب المقرَّبين إليه وما بين بلد هذا الرجل وما بين يثرب حيث الرسول الكريم شاسع المسافات ونائي الديار؟؟ لكنَّك إذا دقَّقت فيما قدَّمناه من قبل وأمعنت النظر فيه وجدت أنَّ الأمر لا يتوقف على قرب الديار وبعدها ولا علاقة له بالقرابة والنسب إنما الأمر كله موقوف على أهليّة النفس واستعدادها، فإذا ما أعدَّ الإنسان نفسه الإعداد اللازم وبلغ بها تلك السوية العالية التي تجعله أهلاً للاجتماع بذلك الرسول الكريم، أو المرشد الذي ينوب عنه ﷺ في البلوغ بالأنفس الصادقة إلى ذلك المقام العالي الرفيع، فهنالك تجدُّ هذه النفس وتندفع في طريقها باحثة منقبة، وما تزال تبحث حتى يهديها الله وتقع على الحقيقة. فسيدنا سلمان رضي الله عنه، لو لم يكن به ذلك الدافع إلى معرفة الحق لما وصلت به قدماه إلى أرض الحجاز، ولما أخذ قلبه يرجف فرحاً لما سمع بمقدمه ﷺ إلى المدينة المنورة، بل لما كاد أن يسقط من أعلى النخلة وهو يجني ثمارها شوقاً إلى هذا الرسول الكريم والسيد العظيم، لكنها إرادة الحكيم ومشيئة هذا الرب الرحيم تسوق كل امرئ إلى ما تطلبه نفسه، وتجمعه بمن صدق في طلبه وابتغاه.

أنت والمشيئة مشيئتك فإذا ما أعددت نفسك الإعداد الكافي وأهَّلتها الأهلية التامة، فلا ريب أن الله تعالى يتفضل بما تشاء وتريد قال تعالى: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً، كُلاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً، انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ ولَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً}[9].**

قال تعالى: **{أَلَمْ تَرَ كَيفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ ربِّهَا..}[10].**

وكذلك الأمر بالنسبة لي ولك ولكل إنسان مهما امتد وطال به الزمان إذا هو تحقَّق بمعرفة خالقه ومربيه، وانتهت به معرفته هذه إلى الإيمان بكلمة (لا إلّه إلا الله)، لابدَّ له من أن يجتمع حقاً بذلك المرشد الذي يدله على الله ويصل به إلى حضرة الله، فتكون له برفقته ودخوله بمعيّته على الله أذواق وأحوال ومشاهدات ثم إنه لابدَّ له في يوم من الأيام ما دام وقد ارتبطت نفسه به وثيق الارتباط من أن يكون وسيطاً بينه وبين رسول الله ﷺ، ينعكس في قلب هذا المريد الصادق ما انعكس في قلب مرشده من حب الرسول والارتباط به ﷺ وما يزال به حتى يتم ارتباطه بذلك الرسول الكريم حيث الشهود بذلك السراج المنير لكمال الله وحيث الاستنارة بنور الله، يشاهد به الخير خيراً والشر شراً، ويصل إلى السعادة الحقَّة والحياة، وأنت ترى مما أسلفناه أن الإيمان بالمرشد الصادق وكذلك الإيمان برسول

[9] سورة الإسراء:18-21.
[10] سورة ابراهيم:24-25.

الله ﷺ ليس بالأمر الهيّن إذ لابدّ لهذا الإيمان بالرسول من إيمان بالله وشهادة أن لا إلّه إلا الله، نعم إنه ليس بالأمر الهيّن لكنه يسير كل اليسر على الصادق.

إذا شهد الإنسان هذه الشهادة الأولى وعقل كلمة (لا إلّه إلا الله) عقلاً نفسيّاً ولَّد في نفسه استقامة وأدَّت به هذه الاستقامة إلى الصلة بالله والإقبال النفسي عليه فعندئذٍ وبما اكتسبت نفسه من الله تعالى من الكمال، وبما انطبع فيها من الحق تراه إذا سمع بكلمة عن رسول الله صدَّقها كل التصديق إذ يجدها مطابقة لما في نفسه، فبكماله يشهد طرفاً من كمال رسول الله، وبما اصطبغ به قلبه من الحق يرى الحق الذي جاء به رسول الله فيصدِّق بكلمات الله ورسوله ويصدِّق بالحق وأهله. قال تعالى: {**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ**}[11].

{**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ، وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ باللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالحينَ**}[12].

وهكذا فإيمانك، وشهودك وتحقُّقك بكلمة (لا إلّه إلا الله) هو الدعامة الأولى وهو الركيزة التي يبنى عليها إيمانك برسول الله ﷺ. وإن شئت فقل: شهادة أن لا إلّه إلاَّ الله هي التي توصلك إلى شهادة أن محمداً رسول الله، إذ بكمالك ترى طرفاً من كماله فتؤمن له وتشهد، وبما انطبع في نفسك من الحق تشاهد الحق الذي جاء به فتذعن له وتخضع وعندئذٍ تدخل ذلك المعهد العالي وتنتسب إلى تلك الجامعة التي نوَّهنا عنها من قبل فتتَّخذ رسول الله ﷺ لك هادياً ومرشداً، وتجعله في دخولك على الله إماماً وتطيعه كل الطاعة وتستسلم له كل الاستسلام. قال تعالى: {**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْليماً**}[13].

وإن نفسك لترتبط بنفس رسول الله الكريم وهي في مثل هذه الحال وثيق الارتباط وتحصل لها صلة معنوية حقيقية به ما مثلها من صلة، إنَّها صلة حبّ وتعظيم وذوق رفيع لا يعرفه إلاَّ المؤمنون بالله الذين شارفت نفوسهم منازل الكمال فسمعوا النداء الإلّهي يناديهم في سرِّهم قال تعالى: {**إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْليماً**}[14].

نعم إن نفسك لتتصل معنوياً بنفس رسول الله الطاهرة السامية وإن أذنك وقلبك ليتفتح لما يمليه عليك من الدلالات والأوامر الإلّهية فتصغي إليه، ويحق لك وقد وصلت إلى ما وصلت إليه من كمال أن تكون طالباً لهذا المعلم العظيم يعلمك الأوامر التي جاء بها عن

---

[11] سورة القصص:52-53.
[12] سورة المائدة:83-84.
[13] سورة النساء:65.
[14] سورة الأحزاب:56.

الله. قال تعالى: {**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنيراً، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ الله فَضْلاً كَبيراً**}[15].

[15] سورة الأحزاب:45-47.

كيفية الوصول إلى الإيمان

ليس المقصود بالإيمان بالله تعالى الاعتراف بوجود الخالق، ذلك الاعتراف القولي الذي يدور على ألسنة العامّة من الناس. لأنَّ مجرَّد الاعتراف بوجود الخالق لا يسمى إيماناً وهو لا يغرس في قلب صاحبه مكرمةً أو يكسبه فضيلة أو ينتزع من نفسه خبثاً، كما لا يدخله في الآخرة جنَّةً أو يقيه ناراً.

وقد ضرب لنا تعالى على ذلك إبليس مثلاً، فذكر لنا في القرآن الكريم اعترافات إبليس بوجود خالقه وإقراره له بالربوبية والعزة فقال تعالى: **{قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَني مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طينٍ، قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّك رَجيمٌ، وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتي إلى يَوْمِ الدّينِ، قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْني إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، إلى يَوْمِ الْوَقتِ الْمَعْلُومِ، قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ}[16].**

ففي الآية الأولى اعتراف منه لخالقه وفيما يليها إقرار بربوبيته ثم أقسم بعزة الله ومع ذلك كله وصف تعالى إبليس بأنه من الكافرين وأن عليه اللعنة إلى يوم الدين. وكذلك اليهود ما كان اعترافهم بخالقهم ليردّهم عن طغيانهم قال تعالى: **{وَإِذَا قِيْلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ}[17].**

وإذاً فليس الإيمان بالخالق اعترافاً قولياً إنما هو شعور داخلي ولَّده في النفس بحث ذاتي وتفكير متواصل فجعل صاحبه يسبح في جلال الله تعالى ويخرُّ ساجداً لعظمته. وهكذا فالإقرار النفسي المقرون بذلك الشعور والتذوُّق المنبعث من قرارة النفس، هو الإيمان الصحيح وما سواه مما يتلقَّنه الإنسان من أبيه وأمه أو البيئة التي ينشأ فيها تلقناً ولا ينبعث في النفس متولِّداً عن نظر وتفكير ما هو بالإيمان المطلوب.

ولكن كيف يتولَّد هذا الإيمان الذي هو أساس طهارة النفس وتحليتها بالكمالات الإنسانية في نفس الإنسان! وكيف يشع في قلبه؟

أقول: لقد خلق الله الإنسان وميَّزه كما ذكرنا من قبل على سائر المخلوقات بتلك الجوهرة التي يستطيع بها أن يتوصل للكشف عن الحقيقة وأعني بهذه الجوهرة التفكير.. ثم إنَّ الله تعالى جعل هذا الكون وما فيه من آيات بيِّنات ونظام بديع وحكمة بالغة بين يدي الإنسان كتاباً مفتوحاً يستطيع أي إنسان كان إذا نظر فيه مدقِّقاً وتفكر متأملاً أن يعظِّم هذا الكون تعظيماً يهتدي من ورائه إذا كان صادقاً في طلب الحقيقة إلى معرفة خالقه والإيمان به والخشوع له. وهكذا فمعرفة المربي هي النبراس الذي يصل بالإنسان إلى مشاهدة الحقيقة وهي السبب الوحيد في الوصول إلى الخير والسعادة، وقد وهب الله الناس جميعاً الفكر تلك الأداة التي يستطيعون بواسطتها أن يصلوا إلى معرفة خالقهم ومربِّيهم، وجعل لهم

---

[16] سورة ص:76-83.

[17] سورة البقرة:91.

السمع والأبصار والأفئدة، وبثَّ في هذا الكون ما لا يحصى من الآيات التي تساعد الفكر على البحث والاستدلال. فمن استفاد من هذه الجوهرة الثمينة، وأشغل فكره وأعمله في معرفة خالقه ومربيه فقد ظفر بالسعادة، وفاز، ومن أشغل هذا الفكر وأعمله في السعي وراء المكاسب الدنيوية وتأمين الشهوات الدنيّة فقد خاب وخسر هذه الحياة قال تعالى: **{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحيَاة الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً، أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً، ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتي وَرُسُلي هُزُواً، إِنَّ الَّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً، خَالِدينَ فيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً}[18].**

[18] سورة الكهف:103-108.

ثمرة الإيمان اليقيني وطريقها

ليس المراد بالإيمان ذلك الإيمان الذي يتناقله السامع عن محدثه، أو يتلقَّاه الطالب عن كتابه ومعلمه ويتوارثه الولد عن أمه وأبيه. فهذا النوع من الإيمان لا نستطيع أن نسمِّيه إيماناً بل هو مجرد اعتقاد وتصديق.

الإيمان الصحيح لا يأتينا من غيرنا بل إنما ينبعث في قرارة نفوسنا ويتولّد في قلوبنا. الإيمان الصحيح علم نفسي وشهود يقيني تشهده النفس في ذاتها وتعقله في سرِّها فإذا هو حقيقة مستقرة فيها تخالطها وتمازجها ولا تنفك عنها. الإيمان شيء معنوي حقيقي يسري في النفس سريان الكهرباء في الأسلاك والماء في الأغصان والحياة في الأجساد، يشرق في النفس فيشعُّ فيها النور والعلم والحياة، تدلُّ عليه الصفات الحسنة والمعاملات الطيّبة والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة ويشعر به المرء في صميمه فيطمئن به قلبه وترتاح به نفسه وتنقشع أمامه الشكوك والشُبَهْ وتنمحي به الظلمات. أما الذين في قلوبهم ريْب وفي أعمالهم إساءات وفي نواياهم سوء وخبث وفي أعمالهم أيضاً تلاعب وانحراف، فما هم من الإيمان في شيء ولو زعموا أنهم مؤمنون قال تعالى: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِاليَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ، يُخَادِعُونَ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يشْعُرُونَ، في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}[19].**

فاسأل أيها الإنسان نفسك هل توصلت إلى هذا الإيمان الصحيح الذي نتكلم عنه، وهل هي تابعَتْ خطواته ومراحله واحدة إثر أخرى، فإن فَعَلَتْ فاطلب منها أن تذكر لك هذه المراحل وتعددها وتبيّن لك الطريق التي سَلَكَتْها. وإن لم تفعل فاستمع إلي أرشدك وما عليك إلا أن تسلك الطريق بذاتك وتتعرَّف إلى مراحله واحدة بعد واحدة فأقول:

أول ما يجب أن يبدأ به الإنسان أن ينظر في نفسه ويتفكَّر في ذاته ممَّ خُلق.. وكيف تكوَّن في بطن أمه حتى صار إنساناً سوياً.. وعليه أن يتابع بفكره الأطوار التي تنقَّل فيها والمراحل التي مرَّ عليها فمن نطفة إلى علقة، ومن علقة إلى مضغة، ومن مضغة إلى إنسان سويٍّ كامل الهيئة تام التركيب يحار الفكر في كمال صنعه ويقف حائراً أمام عظمة كل جهاز من أجهزته وحاسة من حواسِّه ولا يسعه إلا أن يخرَّ ساجداً لعظمة تلك اليد التي عملت على تكوينه وإحكام صنعه.

فإذا ما نظر في نفسه هذه النظرات جنيناً وأتبعها بنظرات أخرى تدور حول أيام طفولته الأولى مولوداً صغيراً يوم كان يأتيه الغذاء من ثدي أمه لبناً سائغاً كامل التركيب كافي المقدار منظم المعايير متوافقاً في نسبته الغذائية مع تدرجه في النمو يوماً بعد يوم بحسب ما يتطلبه جسمه ويحتاج إليه. أقول: إذا نظر الإنسان في نفسه هذه النظرات، وفكَّر هذا التفكير وتابع ذلك وتوسَّع فيه لا شك أن تفكيره هذا يرشده ويهديه إلى أن هناك يداً عظيمة صنعته وخلقته وعنيت بتربيته منذ أن تشكل وخرج إلى هذا الوجود وهي ما تزال مستمرة العناية به قائمة بالتربية عليه. إن هذه النظرات في البداية وفي أصل التكوين لها أثرها لا

---

[19] سورة البقرة:8-10.

بل عليها يتوقف الإيمان بالمربي. ومن لم ينظر هذه النظرات في أصله، ومن لم يتعرَّف إلى بدايته فما هو من الإيمان الصحيح اليقيني بربه في شيء.

قال تعالى معرِّفاً إيانا بطريق الاستدلال على معرفة المربي بما أشارت إليه الآيات الكريمة في قوله سبحانه: **{قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ، ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ}**[20].

{فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُلْبِ والتَّرَائِبِ}[21].

{وَلَقَد خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرَارٍ مَكينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقينَ}[22].

أما وقد عرف الإنسان خالقه ومربيه وتبدَّت له عظمة ربّه فلا شكَّ أن ذلك يقوده إلى التوسُّع في التفكير وينتقل به إلى النظر في نهايته كما نظر في بدايته فيتساءل في نفسه؛ ما بال فلان قد قضى نحبه؟ وما بال فلان لم يطل به أمد الحياة؟ وأين فلان وفلان وما بقي لهؤلاء الذين فارقوا هذه الحياة من العزّ والسلطان؟ وأين هم من متع الحياة وشهواتها وجميع ما فيها من ملذَّات؟ وإذا كان الموت نهاية كل إنسان ومصيره المحتوم وإذا كانت مساعي الإنسان جميعها تصل به إلى هذه النهاية مهما امتد العمر وطال، فما في الحياة من أمل، والخاسر الذي يسترسل فيها دون أن يتعرَّف فيها إلى ما ورائها.

وهنا وبمثل هذا التفكير في النهاية، والمصير إلى القبر وما فيه من رهبة ووحشة تخاف النفس وتلتجئ إلى الفكر وتصدق في طلب معرفة الحقيقة. فلم جاء الإنسان إلى هذا الوجود وما هذه اليد التي خلقته وأرسلته إلى هذه الدنيا ثم كتبت عليه الموت ومفارقة الحياة؟! وينشد الإنسان هذا النوع الجديد من المعرفة ناظراً في أصله لما كان نطفة فيقول: هذه النطفة التي منها أنا، منها خلقت وتكونت، إن هي إلا خلاصة ألوان شتى من أطعمة وفواكه وأثمار تجمّعت هذه الخلاصات ومنها خُلقت، فمن أين جاءت هذه الأطعمة؟ ومن الذي خلق هذه الفواكه والخضر والألوان؟ وما هذه البذور المختلفة؟ ومن أين جاءت؟ ومن الذي ألقى بها على سطح الأرض؟ ما هذه التربة التي اشتملت عليها؟ وكيف تكوَّنت؟ ما هذه الأنهار؟ ما هذه الأمطار؟ ما هذه الشمس؟ ما هذا الليل والنهار؟ ما هذا السير الدائم؟ ما هذه الحركة المستمرة المنتظمة في هذا الكون؟ ما هذه الدورات المنظمات؟ بل ما هذه اليد التي تدير هذا كله لتتأمن حياتي ولتتوفر أقواتي ويستمر وجودي؟ أليس هذا الكون كله وحدة مترابطة الأجزاء متماسكة الأجرام؟ أليس ذلك كله يعمل ضمن قانون ونظام؟ أما لهذا الكون من يديره! وقدرة عليا مهيمنة تشرف على ملكوت السموات والأرض ولا يعزب عنها من مثقال ذرة! وهنا ينتقل هذا الإنسان إلى هذه النقطة الجديدة فتعقل النفس

---

[20] سورة عبس:17-20.

[21] سورة الطارق:5-7.

[22] سورة المؤمنون:12-14.

عظمة هذه الإرادة العليا، والقدرة التي لا حدَّ لها والتي نظَّمت الكون بما فيه عُلْويّهُ وسفليّه، جليله وحقيره، صغيره وكبيره تدرك النفس طرفاً من عظمة الله تعالى وتعرف أنه لا مسيّر غيره ولا متصرف في هذا الكون إلا الله إنها تدرك حقيقة كلمة (لا إلّه إلا الله) فتعلم أن التصرُّف بيده وحده وليس لأحد من حول ولا قوة إلا به وليس من حركة إلا بإمداده ومن بعد إذنه.. فلا تهب رياح ولا تتراكم غيوم ولا تهطل أمطار، ولا تشرق شمس ولا تدور أرض ولا يتعاقب ليل ونهار، ولا تدب دابّة، ولا تنبت نبتة، ولا تنعقد ثمرة، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه تعالى ومن بعد إذنه. ويتسع أفق التفكير لدى هذا الإنسان فيرى أن اليد لا تتحرك حركة وأن الرجل لا تنطلق خطوة، والعين لا تطرف طرفة، والأذن لا تسمع همسة، واللسان لا ينطق ويلفظ كلمة إلاَّ بإذن الله وبحول وقوة منه. يدرك هذا الإنسان ذلك كله عندها تدخل النفس في حصن الاستقامة فتجد أن الله تعالى معها ومشرف عليها بل هو الممدُّ لها في كل لحظة وحين لا يحول ولا يزول فحيثما حلَّ هذا الإنسان وارتحل وأينما سار وانتقل. وكيفما نظر وأنَّى اتَّجه يرى الله تعالى معه، وأنه شاهد عليه فهو سبحانه ناظر رقيب، وسامع قريب، وبه قيام وجود الكون بجميع ما فيه وهو أقرب إلى الإنسان من نفسه التي بين جنبيه.

قال تعالى: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}[23].**

هذه هي المرحلة التي يفضي إليها الإنسان، وهذه هي الحقيقة التي يعثر عليها من بعد تفكيره المتواصل يعقلها عقلاً، ويصبح إيمانه بكلمة (لا إلّه إلا الله) مبنياً على علم كما أمر سبحانه وتعالى بذلك، إذ قال: **{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلّه إِلاَّ اللهُ..}**[24]. وهذا النوع من الإيمان هو المطلوب من كل إنسان وذلك هو الإيمان الحق الذي يحجز الإنسان عن المعاصي والموبقات.

وفي الحديث الشريف: «**كفى بالمرء علماً أن يخشى الله**»[25].

وقال تعالى: **{..إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ.}**[26].

وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله الشريف: «**من قال لا إلّه إلا الله مخلصاً دخل الجنة، قيل: وما إخلاصها؟ قال أن تحجُزَهُ عن محارم الله**»[27].

أما وقد أصبح هذا الإنسان في حال يشهد معه أن الله تعالى ناظر رقيب ومشرف قريب لذلك تراه يستقيم على أمر الله فلا يخالف أوامر ربه في شيء. فالعين لا تنطلق واللسان لا ينطق واليد لا تتحرك والرجل لا تخطو إلا ضمن ما أمر به الله ووفق ما بينه رسول

---

[23] سورة ق:16.
[24] سورة محمد:19.
[25] الجامع الصغير /6240/ للبيهقي في شعب الإيمان.
[26] سورة فاطر:28.
[27] رواه الطبراني في الأوسط الكبير.

الله ﷺ. وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله الشريف: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[28].

وهنا وبمثل هذا السير الطيب والعمل الصالح تتولَّد في تلك النفس المؤمنة الثقة برضاء الله عنها، وتطمئن أنها ذات حظوة لديه تعالى ولذا تجدها تقبل على الله وتتجه إليه وتحصل لها وبحسب حالها الصلة النفسية بخالقها، وبهذه الصلة تنمحي من النفس شوائبها وكدوراتها وتطهر من أدرانها. وبهذه الصلة أيضاً تشتق النفس منه تعالى كمالاً وخلقاً سامياً وصفة عالية، وبهذا تدخل في عداد من تحلَّت نفوسهم بالكمال، وتغدو ذات قابلية وأهلية لتقدير رسول الله ﷺ سيِّد أهل الكمال، وبذلك تُضحي من صحابته ﷺ وأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. عندها تستطيع أن تصلي الصلوات الخمس كما أمر الله بها وتحصل على الفائدة المرجوَّة منها والتي شرعت من أجلها وإلى ذلك أشار ﷺ حيث يقول: «**أرأيتم لو أنَّ نهراً بباب أحدكم يغتسل في كل يوم خمس مرات، ما تقولون؟ ذلك يبقي من درنه؟ قالوا لا يبقي من درنه شيئاً قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا**»[29].

وتتقدَّم النفس بصلاتها يوماً إثر يوم وترقى حيناً بعد حين في منازل الكمال حتى تصبح أهلاً لأن تشتبك بنفس رسول الله ﷺ فتعشقه، وهنالك وبمثل هذه الحال تدخل بمعيّته ﷺ على الله فتشهد من الكمال الإلّهي وترى من الأسماء الحسنى ما يجعلها تهيم بالله حبّاً بنسبة ما شهدت ورأت.

[28] قال الإمام النووي: حديث حسن صحيح.

[29] أخرجه البخاري ومسلم.

الطريق الوحيد لتطهير النفس وتحليتها بالفضائل

بقي علينا أن نبيِّن في هذا القدر كيفية تولد الغِل والحسد وسائر العلل المعنوية في النفس، كما أنه من الواجب علينا أن نبيّن كيفية التخلُّص من هذه العلل. والوصول إلى تطهير النفس منها وتحليتها بالفضائل والكمالات الإنسانية فنقول: خلق الله تعالى الإنسان وأخرجه إلى هذه الدنيا نقيّاً طاهر القلب، نفسه كالمرآة الصافية أو الصفحة البيضاء التي لم ينقش عليها شيء وإلى ذلك يشير الحديث في قوله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[30].

كما تشير الآية الكريمة في قوله تعالى: {**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا..**}[31].

وما يزال الإنسان نقي النفس حتى يبلغ الحلم ويصل إلى سن الرشد وفي هذه المرحلة يصبح أمام طريقين اثنين: فإما أن ينهج طريق الإيمان، وإما أن ينهج طريق الكفر والإعراض. فإن هو آمن بالله حق الإيمان وأقبل بالصلاة بكل قلبه عليه فهنالك تشتق نفسه من الله تعالى منبع الكمال وموئل الفضائل كلها وينتقش فيها الكمال، فيغدو هذا الإنسان إنساناً كاملاً فاضلاً متحلِّياً بالكمالات الإنسانية، مشحون القلب بالرحمة والرأفة والرضاء، عفيفاً طاهراً صادقاً أميناً سخياً كريماً شجاعاً جريئاً عادلاً محسناً مشغوفاً بعمل الخير عطوفاً على الخلق يتمنى الخير لكلِّ إنسان.

كل هذه الكمالات وسائر الكمالات الإنسانية تنقش في نفس هذا المؤمن بالصلاة بصورة لاشعورية وتصطبغ بها بصبغة من الله، قال تعالى: {**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً..**}[32].

وهكذا وبنسبة هذا الإقبال تزداد هذه الانطباعات بالفضائل والكمال ولذا كان رسول الله ﷺ أعظم الناس رحمةً وأشدهم على الخلق إشفاقاً ورحمة وعطفاً وأكبرهم من الفضائل حظاً قال تعالى: {**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ..**}[33]، {**وَاصْبِر وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ بِاللهِ..**}[34].

لهذا نال رسول الله الرحمة وسائر الكمالات.. وتلك هي الطريق الوحيدة إلى نيل الكمال التي سلكها الصحابة الكرام، وكان حظّهم من هذا الكمال مُتناسباً مع إقبالهم فكان منهم السابق والأسبق والمجلّي في هذا الميدان. وكذلك كل مؤمن بحسب إقباله بصلاته يتبع ذلك الركب الأول الأمثل فالأمثل. أما الذي يصل إلى سن الرشد والتمييز ولا يستعمل تلك الجوهرة الثمينة التي زيّنه الله بها ورفع شأنه على الحيوان لا بل على سائر ما خلق، هذا الإنسان الذي لم يُعمل تفكيره في الوصول إلى الإيمان بالله فلا شك أنه يظلُ محروماً من

---

[30] الجامع الصغير /6356/ (ع طب هق) (صح)
[31] سورة الروم:30.
[32] سورة البقرة:138.
[33] سورة آل عمران:159.
[34] سورة النحل:127.

الإقبال على الله، وينشأ عن الإعراض وعدم الإقبال عدم التقدير لفضل الله وإحسانه ذلك المعبَّر عنه بكلمة (الكفر)

وبسبب الكفر والإعراض عن الله تتولَّد في النفس العلل المعنوية من غلّ وحقد وحسد وقسوة قلب وحرمان من الرحمة وحب للتعدّي والظلم إلى غير ذلك من العلل والرذائل والصفات المنحطة الذميمة، وهنالك يدْلُك الشيطان إلى النفس التي امتلأت بهذه العلل وأضحت مشحونة بالخبث يزيِّن لها سوء أعمالها فتظنُّها حسنة. وتلك العلل المتولِّدة في هذه النفس المعرضة هي حظ الشيطان من الإنسان.

ومن أحسن الأمثلة في هذا الموضوع مثل: غرفتين إحداهما معرَّضة لنور الشمس والأخرى مظلمة محرومة منها. فلا شك أن الأولى التي تتعرَّض لنور الشمس تصبح طاهرة نقية، ولا شك أن الثانية بحرمانها من النور تنبت فيها الجراثيم والعُفونات وتغدو خبيثة الرائحة ملوثة الهواء. ذلك هو مثل الأنفس في إقبالها على الله وبُعدها وإعراضها عنه فالمقبلة عليه تعالى تصبح طاهرة نقية تتولَّد فيها الفضائل وتنطبع فيها الكمالات. والمعرضة عنه تعالى يتولد فيها الخبث وتنشأ فيها العلل المعنوية المنحطة، غير أن هذه النفس المعرضة التي وهبها الله تعالى من الاستعداد ما تستطيع به أن تتراجع عن غيّها لا يأساً من شفائها مما هي مصابة به فالأمر موكول إلى هذا الإنسان وحده. قال تعالى: **{..إنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ..}**[35].

فإن رجع الإنسان إلى نفسه بالتفكير واهتدى من وراء تفكيره إلى خالقه فأناب إليه وأقبل عليه تعالى بكلِّيته، فهنالك يمسح النور الإلَهي صفحات النفس فيعيد إليها طهارتها ونقاءها ويرجع بها إلى فطرتها قال تعالى: **{فأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلقِ الله ذَلِكَ الدّينُ القَيِّمُ وَلكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ، مُنيبينَ إليْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ المُشْرِكِينَ}**[36].

وهكذا فالمسألة مسألة إقبال وإدبار. فمن فكَّر وأناب وأقبل على الله تعالى تحلَّت نفسه بالفضائل وطهرت من العلل وامتلأت بالكمال، ومن استكبر وأعرض انحطَّت نفسه وتدنَّت وتلوثت بالعلل المعنوية والأدران.

---

[35] سورة الرعد:11.
[36] سورة الروم:30-31.

بالإيمان يتم تأويل القرآن

ليس بوسع الإنسان، أي إنسان أن يؤوّل القرآن مهما بلغ من الثقافة ومهما حصل من العلوم حتى ولو حفظ القرآن، وروى الأحاديث بأسانيدها واطلع على جميع المذاهب وعرف اللغة ومصطلحاتها من نحو وصرف وغيرها، كل هذا ما كان ليكفيه إلا بشرط واحد وأساسي، به يرى القرآن وقد توضحت له معانيه ووجده مترابطاً متناسقاً يدور حول نقطة أساسية وهذا الشرط هو الإيمان بلا إلّه إلا الله. قال تعالى: {**..قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ والَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً..**}[37].

من هذا المنطلق يؤمن باليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله عندها يرى كل ما في القرآن من أوامر ونواه وكل ما فيه من عبر وحكم وأمثال، وكل ما يأمر به تعالى من صلاة وصيام وحج وزكاة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر إن هي إلا أوامر خيّرة ليقرِّبه بها إليه وليعلم بأنه لا إلّه إلا هو، فلا يعتمد ولا يتَّكل، ولا يطلب، ولا يستعين إلا به وبدونه لا تحصل له زكاة وطهارة، ولن يكون عنصراً صالحاً للمجتمع مهما كانت التربية ومهما كانت الثقافة التي تلقَّاها من دونه تعالى. فإن لم تكن معايناً وممارساً ومشاهداً التسيير الإلّهي، وإذا لم تحصل لك حلاوة الإيمان، ولم تتذوق الرحمة، والعدل والكرم، وإن لم تعلم علماً يقينيّاً بأنه لا فاعل إلاَّ الله، وأنه لا يتحرَّك متحرِّك ولا يسكن ساكن إلا من بعد إذنه، فكيف تستطيع أن تؤوِّل القرآن وتفقه مراميه؟ فالقائد إذا لم يدرس القتال عملياً، لا بد أن يخطئ مهما درس وتعلم، والميكانيكي إذا لم يرَ الآلة وحركتها ولم يختبرها بنفسه فإن علمه عنها يبقى في الحدود النظرية، وكذلك الإنسان قد يسمع وقد يقنع ويصدِّق بفكره فيعرف أن الرزَّاق هو الله، ولكن لا يتَّكل عليه كليّاً، ويعلم أن النصر من الله ولكنه يتهيب غيره، وقد تصيبه مصيبة فتثور ثائرته، وينسى بأن ما أصابه إنما جاء نتيجة ما قدَّمت يداه، فأوْلى له أن يرجع إلى نفسه، لا أن يتَّهم غيره، وبمعنى أشمل إن العلوم النظرية عامة وعلوم الدين خاصة لا تساوي شيئاً دون المحك العملي، فإذا لم يتبع النظر العمل فإن علمه يظل سطحياً.

إن البعيد عن الله لا يعرف مراده تعالى، وهل باستطاعة إنسان أن يعرف مراد ومغزى من لا يعرفه؟ إلاَّ من قبيل الظن والتخمين؟ وإن الظن لا يغني عن الحق شيئاً. إن القرآن حق، والبعيد عن الله لا يعرف إلاَّ الباطل، فكيف يستطيع المعرض أن يعرّف الحق ويبيِّنه. فالإنسان لا يفهم مراد ربِّ العالمين "أي لا يفهم القرآن إلا إذا كان قريباً من الذي نزَّل القرآن".. ولا يستطيع أن يتقرَّب منه إلا إذا سلك طريق الإيمان به، وبهذا التقرُّب ينطبع في نفسه الحق من صاحب الحق، وتغدو نفسه مملوءة من الكمال الإلّهي، بعدها إذا نظر إلى القرآن وتدبر آياته يجده الحقّ من ربه فلا يؤوِّله إلا بما يتوافق والكمال الإلّهي. فكلَّما علا الإيمان سما التأويل، وكلَّما سما التأويل فإن تنزيه الحضرة الإلّهية يكون أكمل.

---

[37] سورة فصلت:44.

الإيمان: هو الأساس في تأويل القرآن، أما اللغة وما فيها من نحو وصرف والأدب وما فيه من بلاغة وبيان، والتاريخ وما يحويه من العلوم القرآنية وأسباب نزول الآيات، والسير والعبر والحوادث، إن هي إلا علوم مساعدة وثانوية بالنسبة للإيمان.

إن الرسول ﷺ ما نزل القرآن على قلبه الطاهر ولا استطاع أن يفهم مراد رب العالمين إلا بإيمانه الرفيع، فهو الذي فاق الخلق جميعاً بالقرب منه تعالى وهو الذي أصبح بالأفق الأعلى من بين الرسل الكرام، فشاهد من آيات ربه الكبرى وما كذب فؤاده ما رأى بل هي أشد وضوحاً من رؤيته البصرية. كل ذلك ما كان إلاَّ عندما أضحى قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله في قلبه ما أوحى. فهو ﷺ أول الخلق في الغاية التي من أجلها خُلقوا. قال تعالى: **{قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}**[38].

ولهذا ما نزل القرآن العظيم على قلبه إلا بالحق وبجدارة. قال تعالى: **{وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ..}**[39].

فقد تعلَّم منه علماً وفهم من القرآن فهماً لم ولن يبلغه أحد من العالمين قال تعالى في سورة الرعد: **{ويَقُولُ الَّذينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}**[40]: مثلي؟ أي ومن عنده علم الكتاب مثلي؟ كل ما جاء به من سنن وكل ما رويَ عنه من أحاديث إنما جاء بها القرآن الكريم ومن علمه العالي به.

إن القرآن بحر ما فرَّط الله فيه من شيء، وهو تبيان لكل شيء من أمور العبادة، والسنن، والشرائع المنظمة للفرد والجماعة والدولة والدول. ولن يقدِّر علم الرسول ولن يقدِّر فضله إلا من سلك مسلكه وأحبَّت نفسُه نفسَه حبّاً تضاءل أمامه حب ابنه وزوجته وأمه وأبيه وعشيرته التي تؤويه. وكل من في الأرض جميعاً حتى نفسه التي بين جنبيه، فعندئذٍ يعلم طرفاً من علم الرسول لهذا الكتاب الكريم. ومن الخطأ أن يُعتبر الحديث والسنَّة والإجماع متمِّمة للقرآن، بل هي قواعد عملية ونظرية استنبطها الرسول ﷺ من هذا الكتاب، فالنبي محمد ﷺ لم يأت من عنده بشيء وليس هو بحاجة إلى شيء، ففي القرآن تفصيلٌ لكل شيء.

إن القرآن نزل على قلبه في ليلة قدَّر الله فيها حق قدره، قدَّر رحمته وعطفه، وحنانه وعدله، وعظمته، ثم رتَّله عليه آية إثر آية وسورة بعد سورة بحسب الظروف والمناسبات، قال تعالى: **{..وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}**[41].. إنه شاهد الحق وعاينه فجاء القرآن تثبيتاً وتصديقاً لما شاهده من قبل لقد نزل القرآن على قلبه الطاهر في ليلة مباركة من شهر مبارك في ليلة القدر التي هي خير من عبادة إنسان قضى في عبادته ثلاثة وثمانين عاماً ونيف.

---

[38] سورة الزخرف:81.
[39] سورة الإسراء:105.
[40] سورة الرعد:43.
[41] سورة النحل:44.

هذا الشهر هو شهر التقوى، فيه تصفو النفس يوماً بعد يوم وتزكو بإقبالها على الله بالثقة التي اكتسبها المرء من صيامه وقيامه، وصدقه، حتى إذا ما بلغت النفس العشر الأواخر تكون قد استوت وزكت، فيكشف الله لها ما يكشف في صلاة التراويح، فتصبح وقد غدت عالمة بقدرته وعظمته، مستسلمة للحق، لا تلتفت إلى سواه، محفوظة بسلام حتى مطلع فجر الآخرة. قال تعالى: **{سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}**[42].

{وَقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا لَولاَ نُزِّلَ عَلَيهِ القُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلنَاهُ تَرْتِيلاً}[43].

أي كذلك نحن نزلناه جملة واحدة ثم رتلناه عليك ببيان، وبلاغة عالية حسب المناسبات، ولنثبت به فؤادك، وليكون تأكيداً وشاهداً لك على ما شاهدته من الحق قبل أن ينزل عليك ثانية وتضعه في مصاحف وأي إنسان يسلك مسلك رسول الله ﷺ فإنه يرى في القرآن انطباعاته النفسية، أي أن القرآن يعكس مشاهداته العملية، ويرى تطابقاً بين ما شاهده بنفسه وبين ما شاهده في القرآن فيزداد ثقة ويزداد إيماناً وابتهاجاً.

قال تعالى: **{وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولونَ رَبَّنَا آمَنَّا فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}**[44].

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ في لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ}[45].

{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى وَالفُرقَانِ..}[46].

والحمد لله رب العالمين

---

[42] سورة القدر:5.
[43] سورة الفرقان:32.
[44] سورة المائدة:83.
[45] سورة الدخان:3.
[46] سورة البقرة:185.

الصلاة

ثاني المَدَارِس العُليَا لِلتَّقوى

مقدمة

تعجب وأعجب ويعجب كل إنسان غربي بماهية الصلاة، ما سرُّها وما حقيقتها! فصورتها حركات وسكنات وتلاوات مبتدأة بالتكبير منتهية بالتسليم يقوم بها المسلم خمس مرات بكل تعاقب ليلٍ ونهار.

وما من امرءٍ غربي يشاهد مسلماً يصلِّي إلاَّ ويعجب من حركاته ويسأله عما يفعل في حركات صلاته، وماذا يستفيد، ولم يقوم بتلك الحركات فيأتيه جواب المسلم: أمر تعبُّدي به نحن مأمورون وعلينا التنفيذ فيزداد تحيُّراً، أو يكون جواب المسلم بأن الصلاة تعبير واعتراف لله بخضوعه، فيعجب الغربي قائلاً: أولا يكفي الاعتراف بخضوع الإنسان لربِّه مرةً بالحياة كما تعترف الدول ببعضها.. إذن فلِمَ تكرار الاعتراف وهل يجب على الإنسان أن يستيقظ باكراً عند الفجر ليعترف، أوَ لم يعترف سابقاً!

ثم وعند الظهيرة والعمل على أشُدِّه يترك عمله أو وظيفته ليعترف ثانياً فلا تمضِ بضع ساعات إلاَّ ويُدعى للاعتراف بربِّه عصراً، وبعدها بقليل بعد غروب الشمس، وبعد برهةٍ عند العشاء؟ أليست هناك ثقة متبادلة بين العبد وربه حتى يشك المسلم بنفسه وبنزاهة اعترافه، فيساورهُ الوسواس بأنه شك بصحة اعترافه ليعود كل يومٍ إلى تكرار اعترافه! أمر عجيب وغريب.

كما يتساءل المرء المفكِّر أبهذه التقاليد التي لا نلمس فائدة منها ولا مردود، وهذه الحركات الغريبة التي يستنكرها كل ذي فكر ونظر لمْ يدرك حكمتَها تفوَّق صحابةُ رسول الله ﷺ على الخلائق بأسرها، وفتحوا البلادَ وقادوا العباد للإنسانية والمحبة والسلام، بل قلبوا الحضارات الكبرى من يونانية ورومانية وزرادشتيه وغيرها إلى الإسلام، ولِمَ لا يفعل أبناؤهم المسلمون ما فعله السابقون، ما دامت هذه الصلاة التي يصلُّونها هي نفس صلاة الصحابة الكرام ومن تابعهم بإحسان فهُجرت الأوثان ورفرفت رايتهم على بلاد الهند والصين؛ بالرحمة التي أفاضوها على العباد، والسلوكية الإنسانية السامية التي شدهوا بها قلوب الأمم؟!

لقد أجابنا على هذه الألغاز علامتنا الجليل قُدِّس سرّه وفتح ما أُغلق علينا، وختم بالحق بما عرف من الحق، فجلا كل الشُبه والغموضَ وكشفَ اللثام عن حقيقة الصلاة وسرِّها العظيم، إذ بيَّن بأن لكلِّ شيء صورة وحقيقة.. صورة الصلاة التي نصلِّيها هي نفسها التي كان يصلِّيها سيد الخلْق ﷺ وصحبه الكرام ومن تابعه من المؤمنين بإحسان.

أما حقيقتها وسرُّها العجيب فإليك هي: الصلاة للمؤمن هي صلة نفسه بربِّها وارتباطها الوثيق بنور خالقها المتوارد عليها بواسطة الشفيع ﷺ بارتباطها النفسي به برابطة التقدير والحب والتعظيم، حيث تسري لنفس المؤمن المصلِّي الحياة القلبية من الحي جلَّ كرمه، فحياة الجسد بالغذاء والشراب والهواء بينما حياة النفس بالصلاة التي فيها الغذاء والنماء للقلب المؤمن، فنحن نتمتَّع بصلتنا بالفاخر من الطعام اللذيذ، ونغذي أعيننا بروعات مناظر الطبيعة والورود والأزهار الفتَّانة مع عبير الاستنشاق من روائحها الشذية المترعة

بالألوان الجذَّابة الأخَّاذة، والمياه الدفَّاقة الرقراقة والنسيم العليل في المنتزهات الاصطيافية، كما نشعر بالحياة الحلوة اللذيذة الطيبة بضم أطفالنا ومن نحب إلى صدورنا بقبلات المحبة الودية الصافية، وكل ذلك بأجْمُعه أثر من آثار خالق الجمال ومبدع كل روعة وجلال وجمال.. فكيف إذا اتصلت نفس المؤمن الحق بمبدع الجمال وممدِّ الأكوان فكم يغمرنا من مشاعر ونعيم وأذواق وافتتان وبوارق نورانية تذهب ببصيرتنا إلى ربِّ كل كمال، كم سنقطف من بدائع الحب الصافي العالي الشريف، حيث تستغرق نفوسنا ببحورٍ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر!. كم من المشاهدات السامية العليّة المتفوقة فوق ما تناله العوالم بأسرها من ربِّ الجمال والفضيلة والكمال، وكم ستتشرب نفوسنا من فضائل وكمالات وينمسح عنها بالنور الإلّهي كل بؤس وتعب وشقاء، وكم تزول من نفوسنا من الأدران، ومن صفات الجبن والضعف والشح وغيرها، مما كانت ستخفض من شأننا عند الله وعند الناس، بل كم سيسري إلى نفوسنا من علومٍ ومعارفَ دونها معارفُ العالَمين.. ذلك غيضٌ من فيوضات الصلاة الحقيقية على كل نفس آمنت بذاتها واختيارها ورضاها بربها من ثنايا بدائع آياته الكونية نتيجة حساب المرء حسابَ الموت وخشيةَ سوءِ المنقلب بعده، اللهم لا عيش إلاَّ عيش المصلِّين.

من هنا ندرك افتتان المنشدين المؤمنين برسول الله ﷺ بقصائد محبةٍ وتعظيمٍ وتوقير تفوق الوصف بسبب ما نالوه بالصلاة بواسطته من بحور فضل الله وكرمه الذي دونه كل إكرام وعطاء، فهو ﷺ الطريق القلبي إلى الله، حيث تتشرَّب النفوس الحق والحياة من الله.

هذا.. وبمقدار ما تنال النفس من ربِّها من فيوضات الكمال والكسب القلبي والخيرات الحقيقية فستفيض بها أعمالاً عاليةً برحمة متدفقة نالها المصلِّي المؤمن بصلاته من معين حضرة الإلّه العظيم، فالله تعالى ينظر إلى ما وقر في نفس المصلِّي من مكاسب من لدنه تعالى فيهيء له أعمالاً صالحة متناسبة مع نوالات نفسه.

والعكس صحيح فكلما قدَّم المؤمن من أعمال البرِّ والخير والإحسان وصالحات الأعمال التي ترفع شأنه عند الله وعند الناس كلما ابيضَّ وجهه فأقبل بصلاته على ربِّه وهو واثق من رضاه تعالى عنه وتسمو صلته بربِّه وتتسامى، فقيام الصلاة يتم بطيبات الأعمال، والله طيب ولا يقبل إلاَّ طيباً. هنالك وبالصلاة الحقيقية يتسامى المؤمن ويرقى رقيّاً متتالياً بكلِّ صلاة ويتغذى غذاء أهل الجنَّات بالوجبات اليومية الخمس فهو ومنذ تفتيحه على الحياة من النوم يلجم زيغان وضلال النفس بالصلوات الطيبات المباركات من الله، وكذا فإذا ما استغرقت في مخالب الدنيا الدنية أو كادت؛ فهو يضحِّي بكلِّ عمل دنيوي مهما علا وطغى ليغذي نفسه عند الظهيرة عند شدة الانهماك بدنياه ليصفِّي نفسه وينقِّيها ويزوِّدها بالمكرمات من ربِّ الأرض والسموات الذي فضله المديد أكبر من مكاسب الدنيا وما فيها والله أكبر، وكذا بقية الوجبات ذات الأكل الدائم والتجلِّي العلوي الظليل إذن:

الصلاة معراج المؤمن بها يسمو وبها يعلو..

الصلاة غسل القلوب وشفاؤها، نعيم المؤمن ومكاسبه وسر الحياة، بها تسري الحياة للنفوس فتنعشها وعافية الأبدان ووقايتها من كافة الأمراض..

فالصلاة كمال الإنسانية وبهاؤها ولا حياة بلا صلاة فهي تنظِّف القلوب من خبثها وأدرانها، بها النعيم كله والشفاء النفسي والجسدي التامَّان الأكملان، والقوة والبطولة والشجاعة التي لا تبارى، وبها تتم التضحيات النبيلة السامية وخوارق الأعمال الإنسانية الكبرى، منها النور والحياة، والبهجة والبصيرة الكشَّافة لكلِّ نبل وسمو متسامق متعال متشاهق.

بها تتم المشاهدات الشريفة العليَّة للحضرة القدسية، للإله العظيم ولأسمائه تعالى الحسنى، كيف لا ورائدها المصطفى النور الباهر الكاشف لعظمة جلال جمال مبدع كلِّ بديع وواهب الجمال لروائع بدائع كافة المخلوقات.. فيا سعادة المؤمن المتقي بالصلاة بحبيب الله نور أنوار الإلَه ومنبع الجنَّات العلى وذلك بشهود كمالاته تعالى ونوال فضله وإحسانه وإغداقات فيوضات الإكرام والإنعام ونوال أقصى المنى.

الصلاة نور النفوس في البرزخ والحياة الحقيقية السارية بعد الموت وبها النجاة من أهوال الموقف ومن النيران المحرقة بالآخرة.

الصلاة وفاء وتطهير من الذنوب وشفاء من العيوب وبها تُنال الجنَّات وتركها جفاء وموت للقلوب.. فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهملِ.

الرقي الإنساني لا يُنال إلاَّ بالصلاة، فبها الحياة كلها والنجاح والفلاح.

فصلُّوا ولا تملُّوا يا أهل السعادة والحُظوة والهناء والنجاة من كل بلاء.. أنتم يا من سلكتم مسالك الإيمان فطلَّقتم الدنيا وعفتم الفتنَ.

تارك الصلاة لا خير فيه.. بالصلاة تزدهي الحياة المترعة بالمكرمات والنجاة من كل قبيح الآفات والصفات، وبها معارج القدس، وهي مهبط التجلِّيات الربانية والفتوحات السنية الأبدية والأخلاق العليَّة والفوز بمجلى الحق المنير.

طوبى للمصلِّين المتصلين بذي الجلال والإكرام بواسطة قدسية روحانية نفس المصطفى وكفى..

طوبى للمصلِّين المؤمنين وحسن مآب..

الصلاة عماد الدين بها يبلغ المؤمن كلَّ مقاصده النبيلة ويُغفر له ما سبق بالصلة العلية بالله، فمن تركها "ففي نفسه المظلومة" قد هدم الدين وخسر اليقين وكان في نهاية عمره من الخاسرين لما أعدَّه تعالى للمصلِّين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

تقديم المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

الصلاة ثاني المدارس العليا للتقوى

والآن وبعد أن تكلمنا عن شهادة أن لا إلّه إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله. وبعد أن عرفنا المراد من هاتين الشهادتين وبعض ما ينطوي تحتهما من معان ننتقل إلى الكلام عن الصلاة التي أشار إليها حديث: «**بني الإسلام على خمس..** » في قوله ﷺ: «**وإقام الصلاة..**» فنقول:

إذا وصل الإنسان إلى شهادة أن محمداً رسول الله وآمن به ﷺ، وصدّق أن كل ما جاء به هو الحق من عند الله، واستسلم لهذا الرسول الكريم كل الاستسلام فعندئذٍ يستطيع أن يتعلم منه أصول الصلاة التي أمر بها الله، وأن يجني الثمرة من هذه الصلاة، وأن يكون الرسول ﷺ إماماً له في هذا المجال ومعلماً وهادياً ومرشداً وسراجاً منيراً.

ولعلك تقول: هل تختلف الصلاة التي علَّمها الله تعالى رسولَه وأمره أن يعلِّمنا إياها عما هو موجود الآن في بطون الكتب مما أثر عنه ﷺ وما تواتر عنه بخصوصها من أقوال وأفعال، منها الفرض والواجب ومنها السنن والمستحبَّات؟ وجواباً على ذلك نقول: لكل شيء صورة وحقيقة، وصورة الصلاة إنما هي موجودة في كتب الفقه والأحاديث الشريفة، ويستطيع أن يقوم بهذه الصلاة الصورية وأن يمارسها البرّ والفاجر والمؤمن والمنافق، وجميعهم يستطيع بحسب الصورة أن يقوم بعمل واحد لكن التباين والتفاوت إنما يكون بحسب الحقائق فلكل امرئ في صلاته وجهة هو مولّيها ولكلٍ قربٌ من خالقه بحسب إيمانه وارتباطه بإمامه ولكل مُصَلٍّ فهم وإدراك، وشهود وعقل. وقد بين ﷺ أن من الناس من يكتب له من صلاته النصف ومنهم الربع ومنهم العشر ومنهم من لا يستفيد من صلاته قليلاً ولا كثيراً.. ويشير إلى ذلك ﷺ: «**وليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها**»[47].

على هذا فالصلاة التي علَّمها الرسول ﷺ أصحابه، والتي أمرنا بها الله تعالى بواسطة هذا الرسول الكريم يجب أن تثمر في نفس المصلِّي عقلاً والعقل هو روحها وحقيقتها ومقاس فائدة المصلي منها. ومن لم يعقل من صلاته شيئاً فلا صلاة له ولم يؤدّها ورُبَّ قائمٍ ليس له من قيامه إلاَّ السهر، ولا بدَّ لنا والحالة هذه من أن نفصِّل في هذه النقطة بعض التفصيل لا سيَّما والصلاة هي عماد الدين ورأس الأمر كله فنقول: بما أن الصلاة هي صلة النفس بخالقها وارتباطها الوثيق بنور ربها، وبما أن العقل هو روح الصلاة وثمرتها لذلك كان لزاماً علينا أن نعرف المراد من العقل، وماذا نعقل في صلاتنا والأصول الواجب اتّباعها حتى نصل إلى العقل. ونبدأ ببيان المراد من العقل فنقول:

المراد بالعقل هنا العقل النفسي وهو ما توعيه النفس وما تختزنه فيها من بعد أن شهدته ورأته، أما ما يعقله الإنسان في هذه الصلاة التي نحن بصددها فيدور حول أمرين اثنين: فهو يعقل طرفاً من الكمالات الإلّهية عقلاً نفسياً من بعد أن آمن بها وعقلها فكرياً وإلى جانب ذلك يعقل سرَّ التشريع الإلّهي وبعض ما انطوت عليه الأوامر التي أنزلها الله تعالى على رسوله في القرآن الكريم، إذ يكون عقل الكمالات الإلّهية بمشاهدة المصلِّي طرفاً من

---

47 كنز العمال: ج3، ص382، ج 7050.

هذه الكمالات شهوداً نفسياً، إذ يرى العظمة الإلّهية والعدل ويشهد الرأفة والرحمة والعطف والحنان والفضل والإحسان وغير ذلك مما انطوت عليه الأسماء الإلّهية وهنالك تتمثَّل نفسه هذه الكمالات وتوعيها وتغدو مستقرة فيها. أما عقل الأوامر الإلّهية فتكون برؤية ما انطوت عليه من خير، فيرى المصلي مثلاً عندما يقرأ آيات الحجاب فائدة الحجاب وما فيه من خير للمرأة ذاتها وذويها، والمجموعة البشرية كلِّها. وعندما يقرأ الآيات التي تنهى عن الخمر والميسر يرى ما فيها من الأذى وما ينجم عن تعاطيها من مضرَّات. وكذلك الأمر بالنسبة للميْتة وما ينشأ عن أكلها من أمراض وعاهات. ويرى الفائدة من الصيام والصلاة والحج والزكاة، إلى غير ذلك من الأوامر التي يعقلها المصلِّي بما يسمعه في صلاته من آيات القرآن. فهو لا يسمع بآية إلاَّ ويرى ما انطوت عليه من معانٍ رؤية متناسبة مع مقدار ما هو فيه من وجهة إلى خالقه، وما هو عليه من صلة وإقبال وذلك ما نعنيه بعقل الأوامر الإلّهية.

ومن لم يعقل في صلاته طرفاً من الكمالات الإلّهية، ومن لم يعقل ما في الأوامر الإلّهية من خيرات، ومن لم يعقل شيئاً مما تنطوي عليه آيات القرآن الكريم التي يتلوها في الصلاة، فليس بعجيب أن تُلَفَّ صلاتُه كما يلف الثوب الخَلِقُ ويضرب بها في وجه صاحبها إذ أنه لم يفد منها شيئاً. أما الطريق إلى العقل فإنما يكون برفقة ذلك الإمام والاقتداء به وهو في الحقيقة السيد الأعظم ﷺ. ومن لم يُصلِّ مقتدياً بذلك الإمام فليس يستطيع أن يصل إلى العقل ولو أنه صلَّى في اليوم مئة ركعة، ولو أنه قام يصلي الليل كلَّه ولعلك تسأل عن السبب وتعجب من هذا القول فأقول: "بعين الرأس ترى الأشياء بالأنوار المعروفة أما الحقائق فلا تراها النفس إلاَّ بنور الله برسول الله ﷺ".

وإذا كان العقل نتيجة لما يحصل عليه المصلي من شهود ورؤية نفسية فكيف تستطيع هذه النفس أن تشاهد كمال الله وليس لها نور تشاهد به هذا الكمال؟ أم كيف تنكشف لها المعاني وليس لها سراج منير يريها هذه المعاني ويبيِّن لها ما في الأوامر الإلّهية من خيرات! لذلك فهذا المصباح من لوازم الرؤية وهذا السراج المنير من لوازم وضروريات من يريد أن يصلَ إلى العقل. وما ذاك المصباح والسراج إلا رسول الله ﷺ. قال تعالى مشيراً إلى ذلك بقوله: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً}**[48].

وما أمر الله تعالى رسوله بالاتجاه شطر المسجد الحرام إلا لتكون نفسه مقبلة عليه تعالى من ذلك المكان لنستطيع نحن أن نولِّي وجهنا شطره حيثما كنَّا وفي أي مكان وُجدنا فنجعله لنا في إقبالنا على الله إماماً وليكون لنفوسنا سراجاً مضيئاً، وذلك سر الأمر الإلّهي ولُبابه. وهكذا فالاتجاه إلى الكعبة الشريفة واستقبال هذه القبلة ركن من أركان الصلاة. ومن لم يصلِّ جامعاً نفسه فيها مقبلاً على الله بصحبة هذا الإمام فلا يعقل من صلاته شيئاً لأنه إنما يصلِّي وحيداً فريداً، وبذلك يطمع الشيطان فيه، ويهرع إليه فيملأ قلبه بالهواجس

[48] سورة الأحزاب :45-46.

والوساوس والخطرات، ورسول الله ﷺ يقول: «**عليكم بالجماعة وإيّاكم والفُرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد**»[49].

وفي حديث آخر: «**فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»[50].

قال تعالى في سورة آل عمران: **{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا..}**[51]: أي عنه ﷺ.

وبناءً على ما قدَّمناه نقول: نحن في صلاتنا واستقبالنا الكعبة لا نعبد الكعبة ولا نتَّجه إلى الأحجار بل إنَّما نتجه من ذلك المسجد الحرام إلى الله ونحن لا نعبد رسول الله، بل إنما نتَّخذه لنا في صلاتنا إماماً وفي نفوسنا سراجاً منيراً، تدخل نفوسنا متى أرادت الإقبال على الله من ذلك المكان فتجد إمامها به فتقتدي به وتقبل على الله بمعيَّته وهو لها نِعمَ الإمام وخير رفيق. وتستنير بالنور الإلّهي الساطع على نفسه ﷺ بسبب إقباله على الله ويريها بعض ما استكنَّ في أوامره تعالى من الأسرار والخيرات.. وهذا يوضّح لنا سرَّ قوله تعالى:**{إِنَّ الله وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً}**[52].

فما أمرنا الله تعالى بالصلاة على هذا الرسول الكريم إلا لنصل نفوسنا به فتدخل على الله بمعيَّته وتستنير بذلك النور الإلّهي الساطع على نفسه. ومن لا صلة له برسول الله، ومن لا محبة له بهذا الرسول الكريم ﷺ فليس بمستطيع مهما حاول وجهد أن يصلي الصلاة التي أمر بها الله، وهو محروم من ذوق الإقبال على الله، أعشى البصيرة عن رؤية كمال الله وهو ليس بمدرك شيئاً مما يقرؤه من آيات. قال تعالى: **{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ..}**[53].

أقول والاتجاه إلى الله تعالى من طريق الكعبة ما هو بالأمر الجديد الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ عن لسان الله، بل إنما جعلها الله تعالى قبلة العالمين منذ عهد سيدنا إبراهيم ﷺ. وقد ذكر لنا تعالى أن سيدنا إبراهيم ﷺ إنما كان يعلِّم الناس من قبل قواعد الاتجاه إليه تعالى من طريق هذا البيت. فقال تعالى: **{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}**[54].

وليست الكعبة قبلة لسيدنا إبراهيم فحسب بل إنما هي أول بيت وضع للناس منذ أن أوجدهم الله تعالى على سطح هذه الأرض، وإن شئت فقل من لَدُن آدم ﷺ، قال تعالى: **{إِنَّ أَوَّلَ**

---

[49] صحيح الترمذي: /كتاب الفتن/ رقم الحديث (2091).
[50] مسند الإمام أحمد: /كتاب مسند القبائل/ رقم الحديث (26242).
[51] سورة آل عمران:103.
[52] سورة الأحزاب:56.
[53] سورة الأنعام:39.
[54] سورة البقرة:127.

بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاس لَلَّذي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِين، فيهِ آياتٌ بَيِناتٌ مَقَامُ إبْراهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً..}[55].

فالكعبة إذن: هي الوسيلة في قيام وجهة الأنفس إلى خالقها في الصلاة وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة. قال تعالى: **{جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاس..}**[56].

ومشروعية ذلك كما رأيت أن تجتمع الأنفس في كل زمان برسولها المتوجِّهة نفسه من ذلك المكان إلى الله. أما وقد شرَّف الله تعالى العالم ببعثة سيِّد ولد آدم فهو ﷺ إمامنا وإمام العالمين. وروح الصلاة أن تُقبل على الله بمعيَّته. وتعرج نفسك إلى الله تعالى برفقته. ومن يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور. أما وقد عرفت سر الإتجاه إلى الكعبة المشرّفة والطريق إلى العقل فلنذكر لك بشيء من التفصيل أصول الصلاة التي يحصل لك بها العقل فنقول:

---

[55] سورة آل عمران:96-97.

[56] سورة المائدة:97.

الوضوء

أمرنا الله تعالى في القرآن الكريم إذا نحن قمنا إلى الصلاة أن نغسل وجوهنا وأيدينا إلى المرافق وأن نمسح برؤوسنا ونغسل أرجلنا إلى الكعبين قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُم وَأرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُم جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعيداً طَيّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيد اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}**[57].

ولبيان طرف من المراد من هذا الأمر الإلٓهي نقول:

من الثابت أن هناك علاقة قوية وارتباطاً وثيقاً بين النفس والجسد وإذا كان نشيطاً نشطت النفس واستيقظت وتفتَّحت مسامعها لما يُلقى عليها في الصلاة من أوامر الله المنطوية في آيات الذكر الحكيم.

وعلى العكس إذا كان الجسد إثر النوم أو التعب الجسدي فاقد النشاط خمدت بالتالي النفس وكان من العسير عليها أن تفقه أسرار الأوامر الإلٓهية وأن تعي كلام الله بالصلاة، وبما أنَّ هذه الأعضاء الواردة في الآية الكريمة مواطن لنهايات آلاف مؤلَّفة من الأعصاب ولذلك فإن غسلها بالماء يوقظ الجملة العصبية كلها وينبِّه كافة الأعصاب، وحيث أن النفس كما نعلم مركزها الأساسي في الصدر وأشعَّتها سارية عن طريق الأعصاب في سائر أنحاء الجسم لذلك فإن النفس بهذا الغسل تستيقظ وتنشط وتغدو مستعدة لسماع كلام الله وفهم المراد الإلٓهي، فضلاً عما يعود به هذا الوضوء من نشاط الدورة الدموية في الجسم وإزالة ما تراكم على أطرافه من أدران إن وُجدت، فالغاية من الوضوء "النشاط" حصراً ليس إلاَّ.

ولعلَّك تقول: إذا كانت الآية الكريمة لم تفصِّل في باقي الأعمال التي كان رسول الله ﷺ يقوم بها أثناء الوضوء والتي تعارف الناس على تسميتها بسنن الوضوء وآدابه، فهل معنى ذلك أن الرسول أضاف شيئاً من عنده تمَّم به آية الوضوء، أم أن جميع ما أُثر عنه ﷺ من أقوال وأفعال كل ذلك إنما هو موجود في القرآن الكريم ومنطوي تحت آياته؟

وجواباً على ذلك نقول: ما يكون لرسول الله ﷺ وهو الأمين على كلام الله المبلغ لرسالات ربه أن يضيف شيئاً من عنده ويزيد على كلام الله. وإن نحن قلنا أن السنة النبوية جاءت متمِّمة لكلام الله، وإن نحن ثبتنا ذلك ورضيناه فمعناه أن كتاب الله جاء ناقصاً، وأن السنَّة جاءت لتلافي هذا النقص وهذا مما يخالف المنطق الصحيح ولا يرضى به الفكر السليم، إذ ما يكون لبشر أن يتمِّم كلام الله وحاشا لله وهو صاحب الكمال أن ينزِّل على رسوله شريعة ناقصة تحتاج لإتمام، فضلاً عن أن القول بذلك يخالف كل المخالفة ما جاء به

---

[57] سورة المائدة:6.

صريح القرآن قال تعالى في محكم كتابه، عن رسل الله الكرام: **{لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ}**[58].

وقوله الكريم: **{..مَا فَرَّطْنَا في الكِتَابِ مِنْ شَيءٍ..}**[59].

وإذا كانت هذه الآية الكريمة تثبت لنا أن الله تعالى ما فرَّط في الكتاب من شيء وكلامه تعالى إنما جاء منطوياً على كل ما يلزم هذا الإنسان وكل ما يحتاجه في الحياة، فكيف تستطيع أن تقول أم كيف تجرؤ على قول أن السنة النبوية وسائر ما ورد عنه ﷺ من أحاديث أنها متممة لنقصٍ سهى عنه الله فجاء الرسول وأكمله، وهو تعالى منبع الكمال ولا تأخذه سنة ولا نوم.

فالحقيقة إذن أنَّ كل ما ورد عن الرسول الكريم إن هو إلاَّ محض توضيح وبيان لما انطوى تحت آيات الله من معاني غفل عنها من غفل وأدركها ﷺ بما امتاز به من عظيم الإقبال على الله وشديد صلته بالله قال تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلاَّ رِجَالاً نُوحي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ، بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}**[60].

وزيادة في إيضاح هذه النقطة نقول:

إذا نحن رجعنا إلى آية الوضوء وجدناها منطوية على جميع السنن التي أُثرت عن الرسول ﷺ في هذا الخصوص.

فالرسول ﷺ كان يغسل أعضاء الوضوء ثلاثاً لتعليم البدو المتأخرين اجتماعياً يدلك بعد المرة الأولى العضو المأمور بغسله لينحلَّ ما تراكم عليه من غبار أو خلافه.

وفي المرة الثانية يزول عن العضو بالغسل ما انحل.

وفي المرة الثالثة لا يبقى عليه أثر من درن أو نحوه.

لقد فَهِمَ الرسول ﷺ سرَّ الأمر الإلَهي من كلمة (اغسلوا) وعَلِمَ أن المراد من الغسل النشاط والنظافة إن لزمت لا مجرَّد تبلل العضو بالماء لأن كلمة (اغسلوا) تستدعي تنظيف العضو بالنسبة لبعض القبائل الموغلة في البوادي العفراء. والتنظيف إنما يكون بالصورة التي أدَّاها ﷺ.

أما إذا بلَّ الإنسان العضو بالماء وصب عليه الماء مرة واحدة فلا يعدُّ ذلك غسلاً بالنسبة لهؤلاء البدو، وعليه فهذا التنظيف والنشاط المرفق هو لبعض القبائل البدوية والتي كان أفرادها متخلِّفون بالحياة الحضارية وكانت ظروفهم المعاشية الصعبة في أعماق صحراء الجزيرة العربية ولندرة الماء وافتقاده في كثير من الأحيان يعمدون إلى التيمُّم فتتَّسِخ

[58] سورة الأنبياء:27.
[59] سورة الأنعام:38.
[60] سورة النحل:43-44.

جلودهم، فرسول الله ﷺ أُرسل رحمةً للعالمين.. للبدو وللحضَر، ولكن حقيقة الوضوء وحكمة فرضه عموماً ليْستا أبداً وقطعاً للنظافة لأن النظافة لها الاستحمام، لكنه فقط للنشاط لأن تيقُّظ الأعصاب ونشاط النفس يقتضي تكرار الغسل ثلاثاً كما أشرنا قبل قليل «**قال الله من ثلاث**» حديث شريف.

رجوعاً إلى علم النفس العتيد نجد إثباتاتٍ علميةٍ وتجاربَ عمليةٍ لا مجال أبداً لنقضها تكشِفُ اللثامَ عن أن من قوانين النفس الفطرية أن الحقيقة لا تثبت يقيناً فيها إلاَّ بتكرار الطلب ثلاث مرات فلا تنساها النفس وتثبت فيها، وهذا الأمر يتجلَّى حين توصي الأطفال الأبرياء بأمرٍ أو جلبِ أغراضٍ مرةً أو مرتين فالطفل ينسى المطلوب، ولكن في حال التكرار ثلاثاً فلن ينسى الطفل المطلوب منه.

هذا ثابت قطعاً بعلم النفس ولكن رجوعاً إلى القرآن كتاب الله المقدَّس نجد هذا القانون مشاراً إليه وساري المفعول كما «**قال الله من ثلاث**».

فقد ثبتت حكمة الحقائق الثلاث التي طبَّقها سيدنا الخضر بحضرة سيدنا موسى ﷺ.

كذا فالطلاق للفراق الأبدي بالثلاث "إلاَّ بحال الزواج من زوج ثاني" هذا الطلاق بلا رجعة يتم بالثلاث كما هو معلوم[61].

كذلك تثبت حقيقة الإيمان ويشرق بنفس السالك بالحقّ للحقِ بثلاث بمدلول الآية الكريمة: **{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى..}**[62] والتي مجموعها ثلاث.

كذا بمدلول الآية الكريمة: **{..فَارجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى من فُطُورٍ، ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتينِ..}**[63] والتي بمجموعها تكون ثلاثاً.

كذا بإنذار سيدنا صالح ﷺ لثمود **{..ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ}**[64].

وعلامة بشرى سيدنا زكريا ﷺ بقوله تعالى: **{..قَالَ آيتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً}**[65].

وبآية أخرى: **{..ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً..}**[66].

فقانون ثبات أيِّ أمرٍ بالنفس تكراره ثلاثاً فيثبت، فقانون النفس من ثلاث، كذلك كان رسول الله ﷺ يكرِّر الجمل الهامة ثلاث مرات لتستقر في نفوس السامعين.

---

[61] انظر بحث الطلاق "البحوث المجيدة رقم (2)" للعلامة الكبير محمد أمين شيخو

[62] سورة سبأ:46.

[63] سورة الملك:3-4.

[64] سورة هود:65.

[65] سورة مريم:10.

[66] سورة آل عمران:41.

هذا وقد توصَّل أبونا إبراهيم أبو الأنبياء بنفسه إلى اليقين بربِّ اليقين من ثلاث: "الكوكب والقمر فالشمس".

وقد عزَّز تعالى الرسل بسورة (يسَ) برسولٍ ثالث، حتى أن كفارة اليمين ثلاثة أيامٍ صياماً وغيرها من البراهين الصادقة.

فرسول الله من إلّه العرش مقتبسٌ علماً هداهُ لنا نوراً من الأزل

لذا سنَّ لنا بما يوحيه الله له بتكرار الاستنشاق وغسل الفم وغسل الأعضاء بالوضوء ثلاثاً بغية تحقيق النشاط للنفس من ثنايا الجسم.. فدين الإسلام دين قوةٍ ونشاط فبتمرير الماء على كلِّ عضو أثناء الوضوء ثلاث مرات كافٍ تماماً ووافٍ ليُوقظ الجملة العصبية كلّها وتنبيه كافة الأعصاب، عندها تنشط النفس لا سيما بأيام الصيف الحارة وبعد التعب وإثر الاستيقاظ من النوم، فبالماء ثلاث مرات يذهب التعب والكسل والميل للنوم إثر الاستيقاظ ويصرفها أصلاً وينهض بالنفس بالصلاة وصلاً.

وهكذا فكلمة **{فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ}** تقتضي الغسل ثلاثاً وينطوي تحتها الدلك وتخليل أصابع اليدين والرجلين عند غسلهما وتحريك الخاتم، وكذلك الترتيب والموالاة إلى غير ذلك من السنن التي نستطيع أن نعدّها وردت في الآية صريحة بالنسبة لصاحب الذوق السليم والإدراك الصحيح والفطنة العالية لأن الإيجاز بالنسبة لهذا الإنسان هو عين البلاغة ومحض البيان.

وليس من البلاغة في شيء أن تفصِّل في مثل هذه الأمور البديهية. وعلى وجه المثال نقول: لو أن امرءاً طلب من ابنه الرشيد ذي الذوق والإدراك السليم أن يسقيه ماءً فهل من المعقول أن يقول له ضع الماء في الكأس، واغسل الكأس قبل ملئه غسلاً جيداً نظيفاً، ولا تناولني كأس الماء إلا بيمناك وباعد أطراف أصابعك عن حافة الكأس عندما تقدّمه، وليكن الماء نظيفاً بارداً إلى غير ذلك من البديهيات، أم أن كلمة (اسقني) تقتضي جميع هذه التفصيلات وأن كل ذي ذوق سليم وفطنة لا يفعل إلا وفق تلك الأصول المذكورة.

والآن بعد أن قدَّمنا ما قدَّمناه نستطيع أن نقول أن جميع ما أُثر عن الرسول ﷺ من أقوال وأفعال منها السنن المؤكَّدة والمستحبَّات وجميع ما كان يتجنبه من مكروهات ومفسدات سواء في الوضوء والصلاة، أو الصوم والحج والزكاة، إلى غير ذلك من الأوامر والتشريعات الإلّهية كل ذلك إنما ينطوي مندرجاً تحت كلام الله تعالى فما فرَّط الله تعالى في القرآن من شيء.

وبما أن رسول الله ﷺ هو أقرب الخلق إلى الله وأعلمهم بكلام الله وأشدهم إقبالاً عليه وأعلاهم بسبب إقباله هذا فهماً وفطنة للمراد الإلّهي لذلك أنزل الله تعالى كتابه على هذا الإنسان العالي الفطن الذي لم يضارعه ﷺ أحدٌ في دقَّة الفهم الناشئة عن ذلك الإقبال العظيم.

وأمرنا تعالى أن نتابع هذا السيد الفَطِن والرسول الكريم فقال تعالى: **{..وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا..}**[67].

وإن آية: **{..مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ..}**[68].

تقرِّر أن السنن النبوية كلها منطوية في القرآن الكريم وأن الأحاديث الشريفة جميعها مأخوذة من كتاب الله. كلما ازداد الإنسان إقبالاً على الله وقرباً من ذلك الجناب العالي استطاع أن يدرك سرَّ الأحاديث الشريفة ويعرف مصادرها من القرآن وهنالك يقدّر هذا الرسول الكريم ويشيد بعالي فهمه وفطنته، وسامي إدراكه وعظيم إقباله فيحبّه ويجلّه ويزيد إيماناً وتصديقاً برسالته، ولعمري ذلك هو طريق الفقه الصحيح وتلك هي أصول الفقه، وهكذا فالفقه لا يكون إلا عن طريق الإيمان، وعلم أصول الفقه إنما يكون بالإيمان الصحيح والإقبال العالي على الله. وكذلك الأمر بالنسبة للحديث الشريف فلا يدرك صحيحه من باطله وموضوعه إلا من سلك طريق الإيمان، والمؤمن المقبل هو وحده ذو الدراية بصحيح الرواية، وهو وحده الذي يستطيع أن يعرف أصول تصحيح الأحاديث، وما سوى ذلك من دراسات واستحفاظ أشكال وطرق بصحيح الأحاديث إن هو إلا تخبُّط أعشى يتخبَّطُ في الظلمات ولا يستطيع أن يعرف صحيحاً من موضوع، كما لا يستطيع أن يعي أسرار ما جاء به ﷺ من أقوال وأفعال. فإن أنت أردت أن تتعلم أصول الحديث الشريف، وإن أنت أردت أن تعرف مصادر السنة النبوية من القرآن الكريم وأن تتعلم أصول الفقه والتأويل الصحيح فاسلك طريق الإيمان الذي أشرنا إليه من قبل والذي سلكه أصحاب رسول الله الكريم، فكانوا علماء حكماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبيَاء، قال تعالى: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِيِّنَ رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ، وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِم وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}**[69].

والآن وبعد أن تكلمنا عن الوضوء وأثره في إعداد النفس للصلاة والوقوف بين يدي الله ننتقل إلى أعمال أخرى نؤديها قبل الصلاة فنقول: لابدَّ للمؤمن إذا أراد أن يقف في الصلاة المفروضة من:

---

[67] سورة الحشر:7.

[68] سورة الأنعام:38.

[69] سورة الجمعة:2-4.

يسمعهما من غيره أو يقوم بهما بنفسه وللأذان والإقامة مكانتهما الظاهرة لدى من أراد الصلاة.

والأذان:

معناه إيذان وإعلام بحلول الوقت الذي آن للنفس أن تقف بين يدي خالقها تستمع إلى آياته ودلالته التي يقتضي أن تسير عليهما في الحياة، كما تدفع عنها بهذا الوقوف بين يدي الله ما تسرَّب إليها من انشغال بمصالح الحياة ومهمّاتها، فتنسجم وتعود إلى إقبالها على الله، فتعود لها الطمأنينة بقربها من ذلك الجناب العالي مصدر حياة الكون ومبعث حياة الوجود. وتأوي إلى ملاذها إذا أحاطت بها الكروب وموئلها إذا ادلهمت بها الخطوب، فتقف بين يديه تعالى مقبلة عليه، فتتجدّد لها الحياة الطيبة وتحط في بابه جل جلاله ما أنقض ظهرها من الأثقال والأحمال. وتتوهج شعلة الإيمان فيها من بعد أن ذكَّرتها ألفاظ الأذان بما استقر فيها من قبل من تعظيم وإجلال وشهود الإحسان من صاحب الإحسان، خالق الأرض والسماء. وهكذا ففي الأذان دعوة وإعلام وذكرى يتذكر بها المؤمن مشاهدات شهدتها من قبل نفسه وأقَرَّ بها قلبه. فتراه يردّد مع المؤذن ما يتلوه على مسمعه من كلمات، فإذا به بهذه الذكرى وذلك الترديد يدخل في كمالات ذلك الشهود السابق ويعرج في معارج القدس من جديد.

يقول المؤذن: الله أكبر.. الله أكبر وتطرق هذه الكلمة مسامع النفس فتذكّرها بشهودها السابق لجلال الله وعظمته وتهيّجها هذه الذكرى وترجع بها إلى ذلك الشهود الجميل الذي كانت شاهدته من قبل، فإذا بها تسمو وتتسامى وقد شاقها ذلك القول إلى اللقاء. فإذا ما قال المؤذن الله أكبر الله أكبر وأعادها ثانيةً قالت معه مصدِّقة وردَّدت معبرة عن شهود جديد خاضت غماره فتقول الله أكبر الله أكبر وهي تسبح في لجج ذلك الجلال الإلّهي. وهي ترى أن لا نهاية لذلك الجلال فمهما شهدت من تلك العظمة فهو سبحانه أعظم وأوسع ومهما رأت من جلال الله وعظمته فهو تعالى أكبر وأكبر.

وينتقل المؤذن إلى كلمة: أشهد أن لا إلّه إلا الله.. يقول المؤذن ذلك معبّراً عن شهوده، أنه يشهد أن لا مسيِّر لهذا الكون ولا مدبِّر لشؤونه إلا الله. فبيده تعالى وحده سيْر السموات والأرض وما فيهما، وبيده وحده أمور الكون كله، وبتدبيره وحده يسير ما في الكون كُلٌّ ضمن اختصاصه وفي حدود وظيفته. إنه تعبير يعبّرُ به المؤذن عن مشاهدته النفسية لمعنى هذه الكلمة ويقولها المؤمن من بعده مردداً ألفاظها فيتذكر هو أيضاً إيمانه بها ويتذكَّر مشاهدته السابقة. ويعود إليها المؤذن فيلفظها ثانيةً فإذا بالمؤمن وهو يقول: أشهد أن لا إلّه إلا الله يدخل نفسياً في مجال جديد وشهود جديد يقول هذه الكلمة وهو يشاهد جديداً وتنغمس نفسه مستغرقةً في ذلك الشهود، متقدمةً في هذا المضمار أشواطاً جديدة أوسع بكثير مما كانت عليه من قبل.

فإذا قال المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله وكرَّرها انطلقت نفس المؤمن سارية إلى البيت الحرام مجتمعة برسول الله ﷺ مقبلة برفقته على الله فتكون له بذلك صلة وحياة.

فإذا أتبع ذلك المؤذن بقوله: حيَّ على الصلاة.. سمعت ذلك منه وهي تشعر وترى أن لا حياة لها ولا حياة للخلق إلا بالصلة بالله فتقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ويكرر المؤذن وتكرر معه.

ثم يتابع فيقول: حيَّ على الفلاح.. فتقرُّ له وهي ترى أن سعادتها موقوفة على ما تقوم به من أعمال البرّ والفلاح في هذه الحياة، فتلتجئ إلى الله طالبة منه أن يمدّها بالعون على ذلك وهي تقول، لا حول ولا قوة إلا بالله، ويشارف المؤذن أن يختم الأذان فيقول: الله أكبر الله أكبر فتزداد إقراراً بالعظمة والرحمة التي لا حدَّ لها ولا انتهاء.

فإذا قال المؤذن: لا إلّه إلا الله، عاد هذا المؤمن المستمع فدخل في ذلك الحصن الحصين ورأى أنه وأن الكون كله في قبضة هذا الرب العزيز الرحيم، نواصي الخلق كلهم بيده وهو وحده المسيِّر يسيِّرهم فيما يعود عليهم بالسعادة والخير.

وأخيراً يختم المؤذن بالصلاة على رسول الله ﷺ اعترافاً بفضل هذا السيد العظيم الذي كان دليلاً لتلك الأنفس إلى الله وسبباً في قربها من الله وشهودها لجلال الله ووصولها إلى ما وصلت إليه من سعادة مدى الحياة. وذلك طرفٌ مما تشعر به النفس المؤمنة إزاء الأذان. أمَّا

الإقامة:

فليس المراد منها ألفاظاً تتلى ولا نهوضاً من بعد جلوس كما يتبادر لأذهان طائفة من الناس إذ تراهم قعوداً لا ينهضون إلاَّ إذا سمعوا كلمة قد قامت الصلاة وهنالك يقفون منتظمين في صفوفهم وما وعوا شيئاً مما يتلى عليهم. الإقامة في حقيقتها إيقاظ مشاعر النفس وعودة بها إلى الطريق الذي مرَّت به خلال الأذان لتعود بها هذه الذكرى إلى مشاهداتها فلعلَّها انصرفت من بعد الأذان بعض الشيء عن هذه الوجهة فإذا ما وقفت بين يدي الله للصلاة فسرعان ما تعود بها ألفاظ الإقامة إلى ذلك المجال. مجال الإقبال على الله والدخول في ذلك الجناب. وما أسرع ما تعود بها الذكرى إلى ذلك الشهود العالي شهود الرحمة والعظمة والجلال والقدرة والله أكبر الله أكبر مما شاهدت هذه النفس من هذه المعاني لتلك الأسماء وتعود النفس بكلمة أشهد أن لا إلّه إلا الله تذكر شهودها للتسيير الإلّهي لملكوت السموات والأرض، وتنغمس بهذا التكرار في تلك الرؤية وذلك الشهود، وتشتبك هذه النفس المؤمنة من جديد بنفس رسول الله ﷺ عندما تذكّرها كلمة أشهد أن محمداً رسول الله، وتستشفع بالصلة به إلى الله فإذا هي قائمة بين يدي الله، مستغرقة في تلك المشاهد لتلك الأنوار الإلّهية منغمسة في لجج الجمال والكمال الإلّهي فتعبّر عن أذواقها وتشعر بكلماتها عما يجري في قراراتها وتقول حيَّ على الصلاة حيَّ على الصلاة فما الحياة إلا بالصلة بالله حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح، وما الحياة بمتحصِّلة إلا لمن قام بعمل الخير والإحسان وحيث أن هذا المؤمن قد تحقق بما يقول وقدَّم من عمل الخير والإحسان ما جعله يخوض

غمار هذه الصلة ويقف هذا الموقف العالي بين يدي بارئ الكون وخالق الأرض والسموات وحيث أن نفسه أضحت في ذلك الجناب العالي تستمتع بشهود ذلك الجلال الإلّهي وتنعم برؤية ذلك الجمال، فهنالك تعبر عن ذلك بقولها: قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة: أي لقد أصبحت نفسي الآن في صلة مع الله. لقد قامت في نفسي تلك الصلة بالله، لقد أصبحت منغمساً في لجج الإقبال على الله والشهود لجلال الله، الله أكبر الله أكبر مما أشاهده وأراه إذ لا حدَّ لعظمة وفضل هذا الرب الكريم ولا انتهاء لا إلّه إلا الله.

ذلك طرف وبعض الشيء مما يتذوّقه المؤمن أثناء الأذان وإقامة الصلاة، وليس الوصف كالذوق وليس البيان والشرح كالمشاهدة والعيان ولكلٍ درجات ومشاهدات وأذواق بحسب ما هو فيه من حبّ لخالقه وتقدير وإيمان.

والمحروم كل المحروم من حُرِمَ الصلة بالله، والخاسر من ترك الصلاة وما تشرَّفت نفسه في يوم من الأيام بالوقوف بين يدي الله والإقبال عليه تعالى بصحبة رسول الله ﷺ. إنه المسكين يلهو بالدنيا وأكدارها وكدوراتها وينغمس في رذائلها ودنيء شهواتها ويحرم نفسه من نفائس الإقبال والتمتُّع بشهود أسماء ذي الجلال.

إنه ينصرف إلى المخلوق ويدع الخالق، إنه يتمسك بالأكدار ويدع الجواهر واللآلئ إنه الأعمى، أعمى القلب، وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. إنه ميت القلب وما يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الأحياء ولا الأموات، فيا خسارة إنسان لحق الدنيا وترك منابع السعادة وموارد الإيمان، آن الآن لهذه النفس من بعد أن أذَّنت هذا الأذان وأقامت الصلاة هذه الإقامة وإن شئت فقل آن لهذه النفس من بعد أن قامت صلتها بالله أن تقف بين يدي ربها للصلاة التي أمرها بها تسبِّح بحمده وتناجيه وتستمع إلى أوامره تعالى ونصائحه فتشترك بالتبعية في تلقي نصائح خالقها وأوامره كيما تستنير بها في حياتها وتسير عليها، ففيها مناسكها، وما يجب أن تطبقه في أعمالها، وهي نبراسها ونورها.

ومن لم يصلِّ هذه الصلاة التي قدَّمنا لها هذا التقديم، ومن لا يعي ولا يعقل في صلاته شيئاً مما يتلى من آيات الله، ظلَّ في جهالة، وظلت نفسه واقفة عند حدٍ واحد لا تتقدم في طريق معرفة أوامر الله خطوة واحدة، بل إنما هو ناقل لما يراه في الكتاب وما يسمعه من غيره غير عاقل لها.

أما هذا المصلي وعندما يكبّر تكبيرة الإحرام فإنه يشير بذلك إلى إلقائه الدنيا وما فيها من مشاغل وأعمال وراءه ظهرياً، ملتفتاً بكلِّيته إلى الله جامعاً نفسه على الله.. تراه يبدأ أول ما يبدأ بدعاء الثناء، فهو يقول: (سبحانك اللهم) وما كلمة (سبحانك) إلاَّ تعبير لفظي عن سبح النفس في عظمة ربها تلك العظمة التي لا تتناهى. وما كلمة (اللهم) إلاَّ تعبير عن مشاهدة النفس للتسيير الإلّهي لسائر الكائنات، فإنها بكلمة (سبحانك اللهم) تعبر عن سبح نفسي مقرون بشهود للتسيير الإلّهي لسائر ما في الكون، ورؤية أن هذا الكون بجميع ما فيه من عوالم سائر كله بإرادة هذا الرب العظيم، فلا نهاية والحالة هذه لجلال الله ولا حدَّ له ولا انتهاء. وتفيد كلمة (وبحمدك) إقراراً من النفس بأن هذا التسيير الإلّهي لجميع ما في

الكون، هذا التسيير كلَّه مبني على رحمة وفضل، فهو سبحانه يُحمد على هذا التسيير، ونتائجه كلها فضل على هذا المخلوق وإحسان وخير، ولا يصدر من هذه الذات العليّة إلا محض الإحسان والخير. لقد شاهدت هذه النفس المؤمنة التي وقفت تصلي هذه الصلاة طرفاً من هذا الحمد في التسيير الإلّهي، ورأت من قبل شيئاً منه فقامت تعبِّر عن مشاهدتها بقولها (سبحانك اللهم وبحمدك)، فإنها تقول ما أعظم جلالك أيها الرب العظيم، وما أعظم فضلك أيها المسيّر الحكيم، إن كل ما في الكون سائر بأمرك، وإن كل ما تسيِّره بما تُحمد عليه إنه يسير سيراً مقروناً بحمدك.

أما كلمة (وتبارك اسمك) فهي تعني أن اسم الله هذا الاسم الذي يشير إلى الذات العليَّة، هذا الاسم العالي، وهو كلمة "الله" ينطوي تحته معانٍ كلُّها خير وكلها فضل وإحسان لسائر العباد والمخلوقات، ففيها البركة على العباد وفيها الخير المستمر على سائر المخلوقات.

وإن كلمة (تبارك) تعني تتالي الخير الإلّهي وتتابعه على المخلوقات. وكلمة (اسمك) تشير إلى ما ينطوي تحت كلمة (الله) من معان وأسماء. إنها تشير إلى اسم الرحمن الرحيم، والحكيم العليم، والقوي القادر، المقسط العادل.. إنها تتضمن سائر الأسماء الإلّهية التي انطوت تحت كلمة (الله) كلها خير وفضل وإحسان. ذلك بعض ما نفهمه من كلمة (وتبارك اسمك).

وذلك حال النفس تعبر عن إيمانها ومشاهدتها لما يتتالى على الخلق من خيرات هذه الحضرة الإلّهية تتالياً متتابعاً لا ينقطع طرفة عين أو لحظة من اللحظات، ثم ينتقل المصلي إلى كلمة (وتعالى جدك)، وكلمة وتعالى جدك مأخوذة من الجد تقول جد فلان في الأمر أي انصرف إلى إتمامه وإنجازه انصرافاً تاماً لا يدع معه أدنى خلل أو نقص فيه.

وهكذا فالله جل جلاله متواصلٌ خلْقُهُ وإمداده لا ينقطع، وخلقه إنما يأتي دوماً على أبدع وجه من الكمال فما من نبات ولا حيوان وما من تنظيم لشؤون هذا الكون وما من مخلوق من المخلوقات إلا ويتم خلقه وتتواصل العناية الإلّهية به على أكمل وجه وبصورة لا يستطيع أحد أن يجد فيه نقصاً أو خللاً فضلاً عن أن يدرك لكماله نهاية. هذه المخلوقات كاملة من كل ناحية تامة من كل وجه لا يستطيع الإنسان أن يجد نهاية لكمالها في حسن ترتيبها ودقة صنعها وإذا الكون كله في كماله وإذا كل مخلوق من مخلوقاته وإذا كل عضو من أعضاء لأي مخلوق كان وإذا وظائف الأجهزة والأعضاء وإذا الترابط الوظيفي بين هذه الأجهزة والأعضاء، وإذا الكون كله مهما دقت أجزاؤه ومهما عظمت وكثرت مخلوقاته كل ذلك جاء خلقه ويجيء على التوالي تاماً كاملاً يعجز الإنسان أن يرى لكماله نهاية وكيف يدرك لهذا الكمال نهاية وهو نسيج يد القدرة الإلّهية؟

ولذلك يعبر المصلي عن طرف من مشاهداته لهذا الكمال الإلّهي في إيجاد هذه المخلوقات بقوله: (وتعالى جدك) أي تعالى خلقك عن أن أجد لكماله أو أن يجد أحد لكماله نهاية فلا نهاية ولا حدَّ لكمال الخلق الذي قامت عليه هذه الموجودات.

ويختم المصلي دعاء الاستفتاح بقوله (ولا إلّه غيرك). فعلى الرغم من سعة هذا الكون وعلى الرغم من تطلّبه تسييراً دقيقاً وعلماً واسعاً وقدرة لا متناهية وحكمة بالغة فليس له من إلّه معك فأنت المسير لشؤونه وحدك وأنت العليم بما تتطلبه سائر مخلوقاتك وأنت الواسع الحكيم وأنت الإلّه القدير والعزيز الرحيم وهذه بعض معاني وأذواق ذاقتها نفس هذا المؤمن خلال مسيره في طريق الإيمان فقام يعبر عن أذواقه ومشاهداته لمَّا وقف بين يدي خالقه للصلاة ذكَّره بها وأعاده لشهودها كله كلمة (الله أكبر) الذي افتتح بها الصلاة فذكر بهذه الكلمة وتذكَّر ولا يتذكَّر إلا من تذكَّر.

ثم يبدأ المصلي صلاته...

ثم يبدأ المصلي صلاته بكلمة (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) وتدخل نفسه بهذه الكلمة الكعبة البيت الحرام والحصن الحصين وهنالك تجتمع برسول الله ﷺ إمامه وإمام العالمين فيقتدي بهذا الرسول الكريم وينصت إليه فإذا به ﷺ يقول لهذا المقتدي بل لكل من ائتم به ووقف يصلي معه **{بسم الله الرحمن الرحيم}**.

أي يا عبد الله إنما أبلغك باسم هذا الإلّه الرحمن الرحيم وأتلو عليك ما سأتلوه عن لسانه.

وهكذا فكلمة (بسم الله الرحمن الرحيم) إنما هي خطاب لك أيها المصلِّي من رسول الله ﷺ يخاطبك بها معرفاً ومبيناً أنه إنما يتلو عليك ما يتلوه باسم الله وعن لسان الله وهو بيان لك من الله وينصت هذا المصلِّي لرسول الله ﷺ ويصغي إليه وتتفتح مسامع نفسه لما سيتلوه عليه فإذا به ﷺ يتلو كلام الله قائلاً: **{الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين}**.. ونوجز ثم نفصل فنقول:

يريد الله تعالى أن يعرفك في الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث بأنه تعالى يُحمد على تسييره لهذا الكون فما من حادثة تحدث ولا مصيبة أو ضائقة تلم وتنزل ولا عسر أو يسر ولا مرض أو شفاء وما من هم أو غم ولا نصرة أو خذلان وما من واقع يقع في هذا الكون إلا وهو منه تعالى محض الخير والفضل والإحسان فهو سبحانه يحمد على كل حال وهو تعالى يستحق الحمد وله الحمد في كل ما يسوقه لهذه المخلوقات، أدرك طرفاً من ذلك أولوا العلم والأبصار ولو انكشف الغطاء لما اخترت إلا ما اختاره الله لك وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبُّوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون. وكيف لا يُحمد الله تعالى على ما يسوقه لعباده وهو الرحمن الرحيم؟ وهل يعاملك الرحمن إلا بما فيه السعادة لك وهل يسوق لك هذا الرب الرحيم إلا ما فيه خيرك؟

أما الآية الثالثة وهي كلمة (مالك يوم الدين) فهي تبيّن لك أن هذا الرب الرحيم الذي كل فعله لعباده إحسان وخير هو المالك يوم القيامة وليس لأحد من الخلق يومئذٍ إرادة ولا اختيار في عمل يتقرب به إلى الله. وإذا كان قد منحك الله في هذه الحياة الدنيا حُريّة الاختيار لتقوم بالأعمال التي تكون سبباً في سعادتك يوم المعاد فقد انقضى في ذلك اليوم العظيم وقت العمل ومضى وسيكون يومئذٍ الحساب وسيكون الجزاء على الأعمال وليس

لأحد إذ ذاك أن يختار غير ما يستحق وليس يُجزى إلا على ما قدَّم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وتفصيلاً لمعنى هذه الآيات الثلاثة نقول: أما الآية الأولى وهي كلمة (الحمد لله رب العالمين) فإنما تنطوي تحتها معان جمّة فهي تعرفنا أن الله تعالى "رب".. وأن هذه الربوبية عامة فهو سبحانه وتعالى رب العالمين ثم هي تعرفنا أيضاً بأنه تعالى هو المسير لأمور هذا الكون وهي تعرفنا بأنه يحمد على تسييره وأن الحمد مقصور عليه فله الحمد وحده وبصورة عامة إنما تعرفنا بأن رب العالمين المسير لما في الكون من إنسان وحيوان أو أي شيء إنما يحمد على كل حال وأن كل فعله وسائر ما يسوقه لمخلوقاته فضل وإحسان وخير.

ونعرفك بكلمة (رب) فنقول: الرب هو المربي مأخوذة من ربَّى وأصل الفعل ربا بمعنى زكا ونما وكما تقول ربا الزرع أي: نما وتشدِّد الباء فتقول: ربَّى فلان الغنمة أي خصَّها بالعناية فجعلها بسبب هذه العناية تنمو وتستمر في الحياة فأمدها بما يلزمها من مأكل منوَّع مُغذِّي وشرب موافق روي وعني بإيوائها في مأوى خاص مهوّى وأسامها في الأرض ترعى في الفلاة متعرضة لنور الشمس والهواء النقي.. وبصورة عامة قدّم لها سائر ما يتوقف عليه دوام وجودها وحياتها واستمرار نمائها.

فالتربية إذاً تعني الإمداد بما يلزم لدوام الحياة واستمرار الوجود والنماء وقد أصبح من السهل علينا أن ندرك معنى التربية لنبتة أو لزرع، ومعنى تربية طفل أو شخص، ومن اليسير علينا أن ندرك المراد من قولنا المعلم مربٍ وأن ندرك مجال تربيته والنواحي التي يخصها بعنايته. وكذلك الأمر بالنسبة للمرشد والرسول وبصورة أعم نستطيع أن ندرك طرفاً من تربية الله تعالى لهذا الإنسان وعنايته به وإمداده إياه بما يلزم منذ أن كان جنيناً في بطن أمه حتى أضحى طفلاً ضعيفاً وما كان يرافق هذه الطفولة من العناية الإلٓهية في تسخير الأم المشحون قلبها بالعطف والحنان إلى أن أصبح إنساناً سوياً ورجلاً كاملاً ثم دوام هذه التربية واستمرارها عليه حتى آخر لحظة من لحظاته.

ويضيق بنا المجال ولا تتسع بطون الكتب لشرح معنى كلمة (رب) ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نجد لهذه الكلمة نهاية غير أن ذلك لا يمنعنا من تقريب القارئ من معناها بعض الشيء فلعله إذا هو فكَّر أدرك طرفاً من هذه التربية ووجد نفسه على شاطئ بحر خضم منها لا يدرك لها قراراً ولا تُحدُّ بحدٍ وهنالك يعظِّم المربِّي ويقدِّره وتخشع نفسه له وتعلم أن الحمد كله له.

أرأيت تربيتك في بطن أمك إذ جعلك تعالى في مستودع محفوظ من كل أذى وضرر ذي حرارة مناسبة وجو معتدل يأتيك رزقك رغداً بأصول ونظام تحار له العقول وأنت تسبح في الماء لا يضرك شيء من الأشياء يساق لك الدم صافياً نقياً والغذاء كاملاً وتخلق خلقاً من بعد خلق حتى تغدو إنساناً سوياً.

فمن الذي كان يعتني بتربيتك آن ذاك؟ أهي أمك أم أبوك؟ ومن هو المربي لك؟ في ذلك الطَّوْر؟ أليس هو الله تعالى صاحب العطف والحنان؟ هل جلست تفكر بعنايته بك في هذه الفترة من حياتك وهل جلب انتباهك هذا الدور؟ فعندما نزلت إلى هذه الدنيا وواجهتْ عيناك النور من هو الذي كان يحضر لك اللبن سائغاً رويّاً في ثديي أمك؟ من هو الذي كان يبدل لك معاييره يوماً من بعد يوم؟ أمَّن هذا الذي أودع في قلب أمك العطف عليك والحنان وجعلها تحزن لحزنك وتفرح لفرحك وتمرض لمرضك وترضى أن تضحي براحتها راغبة في سبيل تأمين راحتك؟ والآن وقد بلغت أشدك وأصبحت رجلاً هل فكرت في من يقدّم لك صنوفاً وألواناً وأنواعاً متنوعة من الأغذية والثمار؟ ومن ينزِّل لك من السماء الثلوج والأمطار؟ ومن الذي سلك لك في الأرض الينابيع والأنهار[70]؟ ومن الذي جعل لك الأرض، هذه الكرة السابحة في الفضاء تدور حول نفسها فيتولد في ذلك الليل والنهار؟

وهل نظرت إلى الشمس وما يأتيك منها من حرارة وضياء وإشعاع والقمر وما هو عليه من نظام تتعرف به إلى السنين والحساب.. والهواء وما فيه من غازات نافعة بنسب معينة لا تستطيع أن تظل بدونها ساعة من نهار؟ من الذي شحن الهواء بهذه الغازات الضرورية للحياة؟ ومن الذي جعل الليل والنهار خلفةً وبهذا القدر المناسب للراحة والحياة؟ من الذي خلق لك البحار وملأها بالماء وجعل ماءَها ملحاً أجاجاً لا يفسد؟ ما هذه الرياح المستمرة في طوافها على سطح الأرض تأتي بالخير وتبشِّر بالمطر وتجدِّد الهواء؟ ما هذه المعادن المودوعة في باطن الأرض ما هذه الأتربة وما هذه الأملاح؟ من الذي ألقى في الأرض من كل زوج اثنين من النبات وبث فيها من كل دابة؟ أليس ذلك كله ضروري للحياة؟ أليس ذلك الممد المربي هو الله؟ وهل فكَّرت بشيء من عنايته بك وعرفت معنى كلمة (الرَّب)؟ الذي يربِّيك في هذه الحياة.

وأوجز القول وأنتقل إلى كلمة (العالمين).. إن كلمة (العالمين) هي جمع عالم والعالم كل شيء من المخلوقات اشترك بعضه مع بعض في الحياة في صفات واحدة ومن جنس واحد.

فالنمل عالم والطير عالم والأسماك في البحار عالم والنباتات عالم والمواشي عالم والإنسان عالم والنجوم السابحات في الفضاء عالم والجراثيم عالم.. حتى أن عالم الطير يضم عوالم عديدة وكذلك عالم الأسماك يشتمل على أنواع شتى وعوالم مختلفة.

وفي الإنسان عوالم كثيرة من كريات بيض وكريات حمر ولكل من الكريات أنواع وأشكال ووظائف وأعمال وتوالد وتكاثر وغذاء ووسط مناسب للحياة، وفي الإنسان ما فيه من عوالم لا تحصى وما يعلم بها إلا الله ولو أنك دققت وفكرت بعض الشيء لشاهدت ورأيت ولطأطأت نفسك مقرَّةً بجلال الله وعظمته وقدرته ولرأيت أن الله تعالى واسع عليم وأنه سبحانه العزيز الحكيم والرؤوف الرحيم.

وهكذا ففي هذا الكون الخضم عوالم وفي كل شيء عوالم لا يعلم بعددها إلا خالقها وموجدها ولكل عالم من هذه العوالم شرائط للحياة وإمداد خاص بها وأصول للتوالد والتكاثر وأنواع

[70] لطفاً انظر كتاب "مصادر مياه الينابيع في العالم" للعلامة الكبير محمد أمين شيخو.

منوَّعة من الأغذية. وعلى سطح الأرض مقادير وأعداد ونسب معينة وقوانين للحياة. قال تعالى: **{..وَكُلُّ شَيءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المُتَعَالِ}**[71].

وهذا الرب الممد لهذه العوالم كلها القائم عليها والمتكفل برزقها والممد لها بالحياة هو الله تعالى وحده رب العالمين.

أما كلمة (الله) في كلمة (الحمد لله) فهي مأخوذة من الإلّه والإلّه هو الذي يؤول إليه أمر كل ما في الكون من حيث رزقه ومعاشه وإمداده بالحياة وقيامه وتسييره في أعماله ومنحه ما يتطلبه في حياته بما يتناسب وكمال كافة المخلوقات فمن كمال لكمال أوسع وليس بالإمكان أبدع مما كان.. أي ليس بإمكان أحد من البشر أن يبدع مثل هذا الإبداع أبداً. فسبحانك ربي ما أعظم كمالاتك ولا إلّه لي وللكائنات كلها سواك.

فالابن الرشيد العاقل حين ينضج ويكبر يحمد كل ما قام به والده بسن صغره تجاهه من تصرفات على اختلاف وجوهها من عطاء أو منع، شدة أو رحمة، غضب أو رضى، أي يقرّ نفسياً بحسن هذه التصرفات ويحترم تلك المعاملة التي عامله بها أبوه حتى رفع من سويته العلمية والخلقية.

فأنا حينما أرى أن المرض قد زال عني وخلصت منه، وحينما أرجع إلى معالجة الطبيب وعنايته بي حتى خلَّصني مما كنت أشكو منه وشعرت بالصحة قد عادت لي من بعد ألم ومرض أجد في نفسي تقديراً واعترافاً بفضل هذا الطبيب وأرى جميع تصرفاته ومعالجاته إياي مهما كان نوعها إنما كانت حسنة، إذ أن غايته جميعها كانت شفائي وخلاصي مما كان بي، فأرى الخير فيما وصف لي من الأدوية الكريهة المرّة، وأرى الخير في تلك المعالجات الشديدة حتى أرى الخير بما قام به هذا الطبيب من جرحٍ جرحني به وألم أثاره في بعض نواحي جسمي تبيّن لي الآن عواقب ذلك كله وقد عادتْ عليَّ بالخير والشفاء والسعادة، وكذلك الطالب حينما يصبح رجلاً وجيهاً في المجتمع ذا منصب رفيع في عمله ومعرفة عالية بين ذويه وعندما يرى شأنه العالي ومكانته السامية التي أصبح عليها هنالك يحمد معلِّمه، أي يرى الخير فيما قام به تجاهه من تصرُّفات مهما كان نوعها ومهما كانت صورتها، حتى أنه ليقرَّ معترفاً في قرارة نفسه بأن ضرب معلِّمه ومعاقبته وحرمانه إياه في بعض الأحيان من الحرية وشدته عليه إنما كانت كلُّها خيراً وهي لا تختلف عنده في شيء عن مدحه ومكافأته وثنائه عليه.

وإطلاق السراح والتضييق والحرمان كلاهما عند هذا الطالب سيَّان في الخير إذ لولاهما لما استقامت نفسه ولما كدَّت وجدّت في سبيل التعليم، وبالتالي لما نالت تلك المنزلة الرفيعة، ولما بلغت ذلك الشأن العالي في المجتمع، فهو يحمد معلمه على ما قام به تجاهه من تصرُّفات لأنها كلها خير وإحسان. وكذلك بالنسبة للابن الرشيد مع أبيه، والمريد الصادق مع مرشده ودليله إلى الله والمؤمن مع رسوله، والإنسان تجاه خالقه ومربيه فهذا الإنسان حينما يرى مثلاً أن هذه الأمراض التي ساقها الله له تعالى في الحياة، وأن الفقر والمصائب

---

[71] سورة الرعد:8-9.

والهموم والكروب والشدائد في الحروب إنما كانت سبباً في توبته إلى الله، وخلاص نفسه وتطهيرها مما بها من العلل والأمراض. تراه حينما يشعر بالصحة النفسية يحمد الله تعالى على ما تفضَّل به عليه. ويرى الخير في جميع تلك المعاملات التي عامله بها تعالى مهما كانت شديدة، ومهما كانت مؤلمة إذ أنه لولاهما لما تطهرت نفسه من الأدران ولما تمحَّصَ ما في قلبه، بل لكان ألمه النفسي ولكانت دنائته وانحطاطه أشد عليه من جميع تلك الشدائد من مرض أو فقر أو خوف وفزع وضيق.

ذاك كله يراه المؤمن في الحياة الدنيا فيحمد الله تعالى عليه في دنياه قبل موته، فإذا كانت الآخرة وكانت الحياة الطيبة وأضحى هذا المؤمن في جنان الخلد يستغرق في النعيم فهنالك يحمد الله تعالى حمداً لا نهاية له حمداً لا يوافي نعم الله ولا يكافئ مزيده، لأن نعمه تعالى لا تتناهى، وكل حمدٍ مهما عظم ففضله تعالى أعظم ونعمته سبحانه أكبر وأكبر. أما الكافر فيحمد الله تعالى في الآخرة، يحمده على أن ساق له في الدنيا ما ساق من شدائد كلها كانت في مصلحته ولخيره ويحمده على أن خلق له النار لأنه يرى أن احتراق جسده بها وشديد إيلامها أهون عليه مما يخالج نفسه ويلازمها من حسرة على ما فرّط في الحياة الدنيا ومن خزي ودناءة وانحطاط تمثل أمامه بسبب أعماله التي قدّمها، فإذا ما صار إلى النار وذاق عذاب حريقها وكان ذلك الألم الجسدي من عذاب الحريق سبباً في غيبته عن آلامه النفسيّة التي لا تطاق، وسبباً في احتجابه عن عاره وخزيه ودناءته وحسراته فهنالك يحمد الله تعالى.

قال ﷺ: «**إن العَارَ ليلزم المرءَ يوم القيامة حتى يقول يا ربِّ لإرسالُكَ بي إلى النارِ أيسرُ عليَّ ممَّا ألقى وإنَّه ليعْلَم ما فِيهَا من شِدةِ العذاب**»[72].

وهكذا فأهل الجنة يحمدون الله تعالى، وأهل النار يحمدونه، وكل الخلق يومئذٍ يرون فضل الله تعالى عليهم، وعظيم إحسانه إليهم قال تعالى: {**..وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمينَ**}[73].

ولا تظننَّ أن معنى كلمة (الحمد لله) تقف بنا عند هذا الحدّ الذي بيَّناه فما ذاك من معناها إلا طرف يسير، وهنالك معانٍ تنطوي تحت هذه الكلمة لا يعلمها إلا الله فما من واقع يقع، ولا حادث يحدث ولا حال يحول ولا همّ ولا غم ينزل، ولا مرضٍ أو فقر وشدة تلمّ إلاَّ وهي من الله تعالى فضل ونعمة وإحسان تسوقها وتنزلها يد الرحمن الرحيم، فهو تعالى دائم العناية بالخلق، باسط يده على عباده بالحنان والرحمة يقلبهم من يسر إلى عسر ومن ضيق إلى فرج، ومن فقر إلى غنى، ومن غنى إلى فقر وفاقة، ومن صحة إلى مرض، ومن مرض إلى صحة، يحوّل من حال إلى حال وكل ذلك منه تعالى تمحيص وتنقية لهذه النفس وكله منه تعالى مداواة وتطهير وتصفية، وكل ذلك فضل ورحمة وإحسان فلو كشف الغطاء لما اخترت غير ما اختاره لك الله ولرضيت بالواقع. قال تعالى: {**وَعَسى أَنْ**

[72] (الجامع الصغير /2059/ (ك) عن جابر (ح).

[73] سورة يونس:10.

تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}[74].

وفي الصبر على ما تكره خير كثير. قال تعالى: {**..وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أولَئكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئكَ هُمُ الْمهْتَدُونَ}**[75].

فالمؤمن إذا أصابته المصيبة، وحاقت به الشدة صبر واستسلم لأنه يعلم أن يد الحنَّان المنَّان إنما أنزلت به ما أنزلت من شدة، فكيف لا يرضى وكيف لا يستسلم؟ إنه يرضى ويستسلم لأنه يعلم رحمة الله، ويعلم حنان الله ويرى عناية الله، عنايته تعالى التي خلقت ما في الأرض وما في السموات لهذا الإنسان، عنايته تعالى التي سخَّرت الشمس وسخَّرت القمر دائبَيْن، وسخرت الليل والنهار والأنهار والبحار، وخلقت من فواكه وأثمار ونباتات وأزهار وسهول وجبال، ومآكل ومشارب ولذائذ، خلقت كل ذلك وتخلق على الدوام فضلاً ومنَّة ورعاية لهذا الإنسان، إنه يرى تلك العناية الإلّهية المحيطة به، القائمة على هذا الكون كله والمشرفة عليه كله، إنه يرى دوام العناية الإلّهية عليه في الليل والنهار، وفي كل لحظة من اللحظات فلو انقطع إمداده تعالى عن العين لما أبصرت وعن الأذن لصمّت وما سمعت، وعن اللسان لتوقّف وما نبس بكلمة، وعن الفكر لزال وما وعى، وعن القلب لسكت وما نبض نبضة، يرى المؤمن عناية الله تعالى به ظاهراً وباطناً فيستسلم لتصرُّفاته تعالى ويعلم أنها كلها خير وفضل ورحمة.

ويحمده تعالى على كل حال. على أن كلمة (الحمد لله رب العالمين) ليست فيما وردت عليه الآن في سورة الفاتحة اعترافاً من المصلِّي يعترف به، وإقراراً يقرّه، بل إنما هي إعلام من رسول الله ﷺ.

فهذه الذات العليّة التي خلقتك وأوجدتك، والتي تشرف على شؤونك وتربيك، هذه الذات العليَّة التي تسيِّر جميع الكائنات والتي يؤول إليها أمر كل شيء فتشاهد طرفاً منها بمعيته ﷺ في هذه الكلمة أن الحمد لله رب العالمين.

إنها تُعرِّفك أن رب العالمين الذي شملت تربيته كل شيء، المسيِّر الذي بيده كل شيء وإليه تؤول أمور كل شيء هذا الرب الممدُّ والإلّه المسيِّر يُحمدُ على كل ما تراه وكل ما يجري في هذا الكون من تسيير وتصرفات.. في كل ركعة، وفي كل صلاة، لا بل في كل يوم وبما يقارب الأربعين مرة يتلو عليك رسول الله ﷺ عن لسان الله كلمة (الحمد لله رب العالمين) لتستقر هذه الكلمة في نفسك ولتتبع معناها ولتحمده تعالى حقاً، فإذا أنت حمدته وعرفت حنانه فقد توثقت الصلة بينك وبينه وهنالك تدخل في النعيم، النعيم النفسي وتتسامى نفسك وترقى من حال إلى حالٍ أعلى، والصلاة معراج المؤمن، وتلك هي الغاية من

---

[74] سورة البقرة:216.

[75] سورة البقرة:155-157.

الصلاة، ومن لم يقرأ سورة الفاتحة ويفهم كلمة (الحمد) ومن لم يتعرَّف إلى كلمة (الحمد لله) ومن لم يفقه معانيها ويدخل بها على الله فلا صلاة له وما هو من الصلاة في شيء.

شرح وإيضاح حول كلمة (الحمد لله ربّ العالمين)

هذا وقد يعرض لك سؤال من الأسئلة فتقول: تبين لي مما سبق من شرح وبيان أنه لا يقع واقع في هذا الكون إلا وقد أذن به الله وشاء وأنه ما من حادث يحدث إلا انطوى على فضل ورحمة وإحسان، فكيف نفسر على ضوء ما عرضتموه جريمة القتل تقع على القتيل فتذهب بحياته وتحرم زوجه وبنيه من عطفه ورعايته وتسبب للقاتل الخزي والعار وتزج به في السجون بالدنيا، وتلقي به غداً في النار. وكذلك السرقة والزنا وسائر أنواع الجرائم والتعديات، وهل وقوع ذلك كله وحدوثه تشمله كلمة (الحمد لله رب العالمين)؟ وهل نستطيع أن نعدَّ ذلك فضلاً ورحمة وعناية من الله بكل من الطرفين القاتل والمقتول، والسارق والمسروق ماله، والزانية والزاني، والمعتدي والمعتدى عليه، وهل كل ذلك يُحمدُ تعالى عليه؟

وجواباً على هذا السؤال وبوجه الاختصار أقول: مادام كل واقع في هذا الكون لا يقع إلا بعلم الله ومن بعد إذنه، فلا شك أن كلمة (الحمدُ لله) تشمل وبدون استثناء كل حادث وواقع، وله الحمد تعالى على كل حال. ونفصِّل ولا نطيل فنقول: الإنسان في هذه الحياة أحد رجلين:

كافر ومؤمن، حيّ وميِّت، أعمى وبصير، أصم وسميع، فإذا أعرض الإنسان عن آيات ربِّه ولم يسلك طريق الإيمان التي شرعها الله تعالى وبيَّنها لعباده أضحت نفسه في ظلمة وعمى. فإذا ما رأى شهوة من الشهوات الخبيثة استحبَّها واستهواها إذ لا نور له من الله يرى به حقيقتها وما تزال هذه الشهوات تعتلج في نفسه ويستفحل أمرها حيناً بعد حين حتى تملك عليه مشاعره وتستولي على قلبه وإنه ليصمم عليها ويعزم على فعلها وما مثل هذا الإنسان والحالة هذه إلا كمثل امرئ سائر في وادٍ سحيق اعترضته صخرة عظيمة سدَّت عليه طريقه ذلك هو مثل الإنسان، هذا بالنسبة لشهوته إنها الصخرة العظيمة سدَّت عليه طريق الإيمان، فمهما ذكرته بآيات الله لا يتذكر، ومهما أوردت له من العبر والمواعظ، لا يتعظ ولا يعتبر ومهما حذّرته من العواقب وأنذرته بسوء المصير لا يحذر ولا يخاف ولابدَّ قبل كل شيء من إزالة هذه الصخرة المانعة التي تعترض طريقه.. فإن أنت أزلتها فقد انفتح الطريق إلى الإيمان وأمكن المضي والسير. ولذلك ورحمة من الله تعالى بهذا الإنسان الذي أصبح سجيناً وراء شهوته وقد انسدَّ عليه بسببها طريق الإيمان، أنه يطلقه فيقع فيما هو مصمِّم عليه ومشتهيه، وهنالك تخلص النفس مما كان مسيطراً عليها وتخلو ساحتها مما كان شاغلاً لها ومالكاً عليها مشاعرها وتزول هذه الصخرة التي كانت قد سدَّت عليها طريقها، ولابدَّ للنفس حتى تسير في طريق الإيمان والحالة هذه من دافع يدفعها وسائق يسوقها، يسلِّط الله تعالى على هذا الإنسان بعد وقوعه في شهوته صنوفاً من الشدائد والمصائب والبلاء فإما المرض، وإما الفقر والفاقة وإما السجن والعذاب والتنكيل، وإما العرض على القتل والإعدام، وكل امرئ يسوق الله تعالى له الدواء المناسب بحسب حاله

وبحسب شهوته وجرمه، ويشتد البلاء على هذا الإنسان المجرم ويزداد في الشدة، وما يزال به يضيِّق عليه ويزيد في الضغط حتى تضيق عليه الأرض بما رحُبت، وتضيق عليه نفسه فلا يجد ملجأً ولا منجاً من الله إلا إليه. وهنالك تستسلم النفس إلى الله وتعلم أن ما أصابها من الشدة والبلاء إن هو إلا بما كسبت يداها وبسبب ما وقعت فيه من إجرام، وتَصْدُقْ وما أسرع ما تنكشف لها الحقيقة أن لا إلّه إلا الله وأن الفعل كله بيد الله، وأن الشدة التي حاقت بها إن هي إلا محض رحمة وفضل وإحسان من الله فتشكر الله على البلاء، وتشكره على ما ساق لها من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، وترى أن الجريمة التي نفذتها وأن البلاء الذي حلَّ بها من بعد، والعقوبة التي ذاقتها، كلها عوامل ووسائل ساعدتها على السير في طريق الإيمان. ولو أنها حبست وراء الشهوة ولو أنها لم يُسلَّط عليها من بعد ذلك البلاء والشدّة، لظلّت محرومة ممنوعة من الخير والحمد لله على ما أصابها وله الحمدُ على كل حال ولا يحمد على مكروه سواه.

ذلك هو الحال النفسي للقاتل عندما تنفذ فيه عقوبة الإعدام، وحال السارق حينما تقطع يده ويذوق مزيد الآلام الممضّة، ذلك هو حاله إن رجع للتفكير حال البلاء والشدّة، إنه ينتقل من الكفر إلى الإيمان، ومن الموت إلى الحياة فيغدو سميعاً بصيراً ويموت وهو يشكر الله ويحمده، وفي الحديث الشريف: «**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان**»[76].

أما إذا خرجت الشهوة، وحاق من بعدها البلاء والشدّة وظل هذا التفكير خامداً فلابدَّ والحالة هذه من شدَّة أعظم وبلاء أكبر.

قال تعالى: {**..وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِم..**}[77].

وإن لم تفد هذه العلاجات كلها فالمصير حتماً إلى النار ونعوذ بالله من مصير أهل النار.

وحيث أني شرحت لك من قبل ما يحلُّ بأهل الجرائم في النار يوم القيامة وبيَّنت لك أنهم يومئذٍ يرتمون بالنار ليخلصوا من خزيهم وعارهم وإنهم إذ ذاك يحمدون الله تعالى على ما يداويهم به فيها فلا حاجة هنا للتفصيل عن أحوالهم بها[78].

تلك هي رحمة الله تعالى ونعمته وفضله ومنّته على المعرضين من بني الإنسان تنبت الشهوة في أنفسهم بسبب إعراضهم. ويزيِّن الله تعالى لهم أعمالهم فيقتل القاتل، ويسرق السارق، ويزني الزاني، ويجرم المجرم ثم تكون الشدَّة والمداواة وتخلص تلك الأنفس إن هي رجعت إلى الله ممَّا كان بها من جرثوم الشهوات وتدخل في حظيرة الإيمان، وتحمد الله على ما عالجها به من علاجات. أما بالنسبة للمقتول وزوجه وبنيه، والمسروق ماله، والمعتدى عليه فلا تظننَّ أن الذي اعتلجت في نفسه جريمة القتل أو السرقة أو الزنا والتعدي

---

[76] مسند الإمام أحمد ج3 ص116.

[77] سورة الرعد:31.

[78] انظر كتاب تأويل الأمين (الجزء الأول) بحث حقيقة النار.

يستطيع أن يسرق أو يعتدي على أي إنسان أراد. فالله سبحانه هو المهيمن والمشرف، وهو الحكيم العليم. قال تعالى: **{..مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبّي عَلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}**[79].

فإذا انتهى أجل المرء وكان من الحكمة والخير أن يموت هذا الذي انتهى أجله قتلاً وبهذه الصورة الرهيبة ساق الله تعالى القاتل إليه، وجعل تنفيذ جريمته عليه، وهنالك تكون الشدَّة التي تقع على المقتول ساعتئذٍ دواءً لنفسه وعلاجاً، إذ أنه لا بدَّ أن يكون من قبل قاتلاً فنال جزاءه وجزاء سيئةٍ سيئة مثلها، أو أن له من الأعمال السابقة ما اقتضى أن يكون موته بهذه الصورة، فلعلَّه إذا هو التجأ وأناب تطهر نفسه وتخلص مما بها من أدران وذلك ما كنا آنفاً فصَّلناه وبيّناه.

وكذلك الأمر بالنسبة للمسروق ماله، والمعتدى عليه، لابدَّ أن كلاً منهما سبق أن ظلم فأعاد الله تعالى عمله عليه قال تعالى: **{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}**[80].

حتى أن الزاني لا يقع عمله وعدوانه ولا ينفذ شهوته إلاَّ على امرأة خبثت نفسها وتطلَّبتْ هي أيضاً الفاحشة.

قال تعالى: **{الزَّاني لاَ يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إلاّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلكَ عَلَى الْمُؤْمِنينَ}**[81].

وهكذا فهذه الذات العليّة قائمة على الكون بالقسط وبيدها نواصي الخلق تسيّرها بالحق وما من واقع يقع إلاَّ من بعد إذنه، ولله الحمد على كل ما يسوقه لعباده.. وإن من شيء عنده إلاَّ بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

فإذا أردت أن لا يعتدي معتدٍ عليك فاستقم كما أُمرت، وإن أنت شذذت وبغيت فارتقب وقوع البلاء، والشدَّة من بعد الرخاء والله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم، ومن زكّى نفسه وسلك بها طريق الإيمان فقد أفلح وفاز، ومن أعرض عن طريق الإيمان، ودسَّ نفسه فقد خاب وخسر، وما الحياة الدنيا إلاَّ متاع الغرور.

---

[79] سورة هود:56.
[80] سورة الأنعام:129.
[81] سورة النور:3.

استنباط أوقات الصلاة من القرآن الكريم وكيفيتها

قال تعالى: {**.. مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ..**}[82].

هذا الكتاب الذي يُحمد عليه تعالى لأنه يهدي الإنسان إلى سُبل السعادة مبيِّناً له ماذا يجب أن يختار حتى يسلم دنيا وآخرة.

ولكن من ذا الذي يفهم ويشاهد هذه القوانين.. من يفهم المراد الإلٓهي من كلامه تعالى؟

حتماً القريب منه تعالى، وأقرب الخلْق من الله هو رسول الله ﷺ فهو أفهمهم لكلامه وأوضحهم بياناً لمراده تعالى، ولذا خاطبه الله قائلاً في سورة (قَ): {**قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**}: أي: يا قريب، إذ بقربه العظيم من خالقه تشرَّب منه تعالى هذه المعاني العليّة فكان أهلاً لتلقي تلك الدلالة العالية التي لا يستطيع أي إنسان أن يأتي بكلمة منها.

لمَّا أنكر الكفَّار رسالته {**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً..**}.. أمره تعالى بالرد عليهم: {**.. قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**}[83].

فرسول الله ﷺ يقول: {**وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**}: مثلي، هل ثمة أحد يفهم مثلي.. فهمي وبياني وعلمي به ألا يدل على أنِّي رسوله!!. هذا دليل على رسالتي. فبقربه العظيم ﷺ فَهِمَ مراد الله هذا الفهم العالي العظيم.. وهذا قانون: كذلك كلما كان الإنسان قريباً من الله ورسوله كلما اقترب فهماً للمراد الإلٓهي وأدرك مما في القرآن من أسرار وحكم وأحكام منطوية في آياته تعالى.

---

[82] سورة الأنعام:38.
[83] سورة الرعد:43.

أوقات الصلوات الخمس في القرآن الكريم

الصلاة: هي صلة النفس بربِّها وارتباطها الوثيق بنور خالقها بارتباطها برسول الله الكريم ﷺ فهي حقيقة تسبيح من رسول الله ﷺ لهذه النفس "المصلِّية المتَّصلة" بحمد الله بمشاهدة أسمائه الحسنى وعظيم جلاله وبحار أنواره تعالى وجماله. قال تعالى: **{فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى}**[84].

{فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ}: يا محمد ﷺ، ليقولوا ما شاؤوا. **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}**: عرِّفهم بأني أُحْمد على ما أسوق لعبادي، أرِهمْ فضلي وحناني وخيراتي وتسييري الخيِّر، هذه سورة الفاتحة ومشروعيتها.

بكل ركعة يقول لك رسول الله ﷺ: **{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}**.. بإسم الله: يا عبد الله أبلِّغك. الحمد لله: أنه يُحمد على كل ما يسوقه لعباده، سبِّح نفوس الذين آمنوا معك.

فكلمة (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) إنما هي خطاب لك أيها المصلِّي من رسول الله ﷺ يُخاطبك بها معرِّفاً ومبيِّناً أنه إنما يتلو عليك ما يتلوه بإسم الله وعن لسان الله وهو بيان لك من الله، وينصت هذا المصلِّي لرسول الله ﷺ ويصغي إليه وتتفتَّح مسامع نفسه لما سيتلوه عليه، فإذا به ﷺ يتلو كلام الله قائلاً: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}**.. فتصدِّق رسول الله وتقول: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**: بمعيَّتك يا رسول الله ندخل على الله مطيعين.

متى سبِّح! **{قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ}**: الصبح.. وهذه صلاة الفجر. **{وَقَبْلَ غُرُوبِهَا}**: العصر.. وهذه صلاة العصر. **{وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ}**: المغرب والعشاء. **{فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ}**: الظهر. **{لَعَلَّكَ}**: بهذا التسبيح لهم بحمد ربك وبما تصل إليه من إيمان جماعتك. **{تَرْضَى}**: إن آمنوا هذا الإيمان وقالوا الحمد لله: إذ أن رسول الله ﷺ بحنانه وعطفه كاد يُهلك نفسه رحمة وحناناً عليهم فإذا رآهم قد دخلوا على الله ونالوا فضل الله عندها يرضى.

وقوله تعالى: **{فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ}**[85].

{وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ..}[86].

{وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ}: الطرف الأول عندما تميل إلى الزوال.. الطرف الثاني عندما تصبح الشمس أقرب إلى الغروب منها إلى الزوال: ظهراً وعصراً. **{وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ}**: من الغروب للشفق الأبيض.. الغروب: صلاة المغرب للشفق الأبيض عندما يزول الشفق الأحمر بالسماء ويصبح اللون الأبيض بالغرب مثل اللون الأبيض بالشرق عندها دخل

[84] سورة طه:130.
[85] سورة الروم:17-18.
[86] سورة هود:114.

وقت العشاء: وهذه صلاة العشاء. والثالثة من الفجر للشروق: مغرب، عشاء، صبح. {**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ..**}: الصلاة تجر لفعل المعروف.

فالنهار يبدأ من شروق الشمس ولما تصل لكبد السماء "منتصف السماء (خط الزوال)" وتبدأ بالميل إلى الزوال هنا تشرع صلاة الظهر.. يؤذن معلناً حلول موعد صلاة الظهر.. ينتهي الأذان حيث تكون الشمس قد مالت عن خط الزوال وهنا تبدأ صلاة الظهر وهذا هو الطرف الأول للنهار.

فكلمة (الطرف) من التطرُّف، نقول: تطرَّف فلان في مسكنه، أي: ابتعد. فالشمس تبدأ بالابتعاد عن خط الزوال والنهار يتطرَّف منقضياً حتى حلول طرفه الثاني عندما تصبح الشمس أقرب إلى الغروب منها إلى وقت الزوال ويكون الطرف الثاني للنهار قد حل، وهنالك يؤذِّن المؤذِّن مُعلناً شروع صلاة العصر، وتسمى هذه المرحلة "من بعد حلول العصر" مرحلة الغروب وهي التي تصبح الشمس فيها أقرب للغروب منه لخط الزوال، وهي تمتد حتى غروب الشمس.

ففي سورة طه: عبَّر تعالى بكلمة (أَطْرَافَ النَّهَارِ) عن مدى جواز إقامة صلاة الظهر، إذ يمكن للمصلِّي أن يصلِّيها من أول انحراف الشمس عن كبد السماء حتى وصولها لوقت العصر. أما قبل العصر فكان النهار في مسيرة التطرُّف للانقضاء والشمس في طور الميْل للزوال وهذا ما قصد به تعالى بكلمة (أَطْرَافَ النَّهَارِ).

أما سورة هود فتبيِّن بكلمة (طَرَفي النَّهَارِ) حلول موعد صلاة الظهر وصلاة العصر.

الطرف الأول: حيث بداية انحراف الشمس عن الزوال والشمس في كبد السماء بدأت تميل باتجاه الغرب، كمسافر بدأ بالاتجاه لبلد ما، فقد بدأ يزول عن بلده.

والطرف الأخير: حيث نهاية انحراف الشمس عن الزوال وهي أقرب للغروب منها لوقت الزوال كما قدَّمنا.

وعبَّر تعالى بسورة طه بكلمة (قَبْلَ غُرُوبِهَا) عن فترة جواز صلاة العصر وهي المرحلة ما بين عصر اليوم حتى غروب الشمس خلف خط الأفق وغيابها عن الأنظار؛ ومن بداية تلك المدة تبدأ إقامة صلاة العصر. وفي سورة هود: {**وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفي النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ..**}[87].

إذاً فأوقات الصلاة فهمها رسول الله ﷺ من كلام الله ودلَّ أصحابه عليها وصلاَّها، وفي حديثه الشريف ﷺ: «**علَّمني ربي فأحسن تعليمي**».

وهذه سنة الله للخلْق أجمعين من لدن سيدنا آدم ﷺ حتى انتهاء الدوران. قال تعالى: {**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**}[88].

---

[87] سورة هود:114.

[88] سورة النساء:26.

{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ..}[89].

هذا هو القانون الإلَهي الذي فيه تتحقَّق سعادة الإنسان على مر العصور والأجيال من بداية الخلْق لانتهاء الدوران **{.. فَإِلَهُكُمْ إِلَه وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ}**[90].

وكل ما ورد عن أن الله أمر رسوله ليلة الإسراء بخمسين صلاة، ثم طلب التخفيف ﷺ بناءً على تعليم سيدنا موسى ﷺ له فهي دسوس إسرائيلية واضحة وهي من تلك القصص التي تنافي حكمة الله وعلمه وتخالف أسماءه الحسنى فلا أصل لها، إذ ليس فيها ذرَّة من منطق، ولا يُكلِّف الله نفساً إلاَّ وسعها.. ليس بوسع أحد أن يصلِّي 50 صلاة باليوم والليلة وهذا فوق الطاقة البشرية وجعلوا فيها سيدنا موسى ﷺ أعلم من الرسول ﷺ، بل من الله تعالى، إذ أنه أمر تعالى على حدِّ زعمهم وحكم مع أنه تعالى **{..لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ..}**[91]، فردَّ سيدنا موسى ﷺ حكم الله بأحسن منه، فهل المخلوق أعلم من الخالق؟ حاشا وكلا وتعالى الله عن هذا الزعم علوّاً كبيراً، كما تدل على أن الله لا يعرف دلالة عباده وطريق سعادتهم فهو ليس بعليم ولا بحكيم ولا يريد الله بالإنسان اليسر، بل يريد له العسر.. وحاشاه تعالى، فلله الأسماء الحسنى وهو الذي يعلم طريق سعادة عباده، وكل الخلْق بما فيهم الأنبياء والرسل بحاجة لعلمه تعالى ويستقون منه الحكمة. **{..وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}**[92].

فالصلاة في القرآن الكريم وبكل الكتب السماوية هي ذاتها لم تتبدل ولم تتغير، خمس صلوات: محطات تقوية لصلة النفس بربِّها.. كلما ضعفت يعود الإنسان ليقوِّي هذه الصلة ويمتِّنها. وحتى أن كيفية الصلاة أشار إليها القرآن الكريم أيضاً، ولكن من ذا الذي يدركها إلاَّ إنسان قريب من الله ورسوله حق القرب.

قال تعالى: **{.. إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً}**: هذا هو السجود. **{وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً}**: حق واقع. **{وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ}**: ومن هنا أخذ الرسول الكريم السجدتين في الصلاة. **{وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً، قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ}**: أي اسم كان: قهَّار، جبَّار، منتقم، كلها أسماء حسنى.. كلها ضمن الرحمة. **{أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ}**: في النهار. **{وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا}**: في الليل. **{وابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً، وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ}**: من هنا أخذ ﷺ قراءة الفاتحة في الصلاة. **{الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً}**[93] تكبيرات الانتقال في الصلاة.

---

[89] سورة الشورى:13.
[90] سورة الحج:34.
[91] سورة الرعد:41.
[92] سورة يوسف:76.
[93] سورة الإسراء:107-111.

الزكاة

ثالث المَدَارِس العُليَا لِلتَّقوى

مقدمة

الزكاة أمُّ الإنسانية وروحها العملي وسر نجاح الإسلام ببناءٍ شامخٍ مجيد. هي التي تجعل من الإنسان أخا الإنسان وبها تتم الإلفة والمحبة والمودة بين الغني والفقير، وتزول الطبقات العدوانية من نفوسهم وتصطبغ بصبغة العرفان بالجميل والحب والتقدير للغني الباذل الذي يؤثر أخاه الفقير بمالهِ عن نفسه؛ كما تنمو بنفسه علاقة حِبّيَة إنسانية نحو الفقير، إذ منحه جزءاً عزيزاً من نفسه "أي المال" الغالي عليها، قدَّمه حبّياً لمساعدة أخيه المحتاج. كانت نفسه متعلّقة بمالهِ فقدَّمه عن رضى وطيبة نفس للفقير وانتقل التعلُّق بالمال للتعلُّق بوشائج المودة بأخيه الفقير وغدا ونفسه مترعة بالعطف والحب له تماماً كما يتعلَّق الآباء بأبنائهم المرضى الذين يكلِّفونهم إنفاق الغالي لشفائهم.

هنالك يزول التمايز الطبقي والبغض والكراهية بين الأغنياء والفقراء ويحلُّ محلها العطف والتقدير والمودة.

وفي الزكاة ثقة برضاء الله فتتجه النفوس إلى الله تعالى وتُقبل عليه وتطهر من الصفات المنحرفة عن الإنسانية، كما تتشرَّب الكمالات من حضرة مبدع الكمال فتتشح بوشاحات الصفات الكاملة.

بالزكاة يتحقَّق عملياً قانون الكفالة الاجتماعية والتوازن الطبقي والنهوض بالمجتمع ككل، ويترفَّع أفراده عن مستوى الوحشية والصراع الطبقي إلى مستوى الإنسانية والقناعة والتحابب والتآنس، فيتمُّ التآزر والترابط والإخاء. لقد زال مستوى اختلاف الشحنات وتنافرها إلى مستوى توحيد الوجهات وإلفتها.

أوَ ليس الذي خلقْ.. أعلم بمن خلقْ، أوَ ليس الذي صنعْ.. أعلم بمن صنعْ وبما يكفل للخلْق سعادتهم طيلة الحياة وبعد الحياة؛ بالآخرة حيث الإكرام بالجنَّات ثواب ما ضحَّى المرء وما قدَّم من الصالحات من الأعمال والتي بها صلاح البشرية والنفوس الإنسانية والتي على رأسها إنفاق المال الغالي والعزيز على النفس بوجهه السامي النبيل.

إذن فالزكاة هي الوسيلة التي خطَّها لنا تعالى وجعل منها فرضاً لازماً لتحقيق المودة والإنسانية للبشر كافةً لا فرق بالعطاء بين أبيض وأسود ومسلم وغير مسلم فهم جميعاً نسيج الحضرة الإلّهية وعباده، وكلهم إخوة، أبناء آدم عليه الصلاة والسلام.

هذا وإن تطبيق هذه الفريضة الطوعية على غير وجهها الصحيح أفقدها عظيم مزاياها حتى غدت وكأنها ما كانت، لا سيَّما في أزمان المتناقضات بالدسوس التي خلقتها الصراعات، حيث تقاذفت الأهواء وتعارضت الآراء وغدا إعجاب كل ذي رأيٍ برأيه رغم ما يُشاهد من غنى مفرط مع فقرٍ مدقع، بَطَرٍ مفجع مع حرمانٍ مبكي. غنى كما يُقال: فوق الريح وشبع مريحْ.. يزامِلُه شقاءٌ وضجر، تبرُّمٌ وملل، يكاد يقتل الغني، إذ رغم أن كلَّ رفاهيةٍ وبذخ موجود بوجود الوافر من المال إلاَّ أن السعادة مفقودة من سمائه والضنك يلازمه ولا يفارقه ينتهي بسأم عجيب وملل غريب.

أما الفقراء فهم في فقر وأي فقر؛ تحسبهم أحياءً وهم من الطفرِ والمسغبة غير أحياء، فكأنهم أموات يمشون على الأرض كالأشباح.

كم من الأمم في العالم الثالث يغزوهم الجوع الفظيع القاتل وأطفالهم الجياع يبكون على لقمة العيش فلا يجدون، يأتيهمُ الموتُ من كل مكانٍ وما هم بأحياءٍ ولا أموات، بل أشباهَ أشقياءٍ حلَّ بدارهم الفناء.

وآخرين: مستلزمات الحياة الجديدة من الحضارة الراقية العتيدة قتلَتْهم بلا رصاص وذبحتهم بلا خناجر يطلبون العمل الشريف فلا يجدون، حتى وإن وجدوا ظُلموا ومُنحوا أجراً لا يسدُّ رمقهم، بل يكاد يزهق نفوسهم فيجعلهم ناقمين على أسيادهم، وقد حُرموا من العطف والإلفة، فشُحنتْ نفوسُهم نقمةً وشظفاً، إذ أضحوا عبيداً ولا عبيد، حيث لم يجدوا عملاً فيه كفافهم، بما يحفظ عليهم كرامتهم وليُكملوا مسيرة حياتهم.

إذن أَمَا آن الأوان لنطبِّق الدواء العجيب بتوزيع الزكاة بوجهها السامي الرشيد التي بها الحلُّ والشفاءُ من كل داءٍ اجتماعيٍّ هدَّام: إذ بها عيشُ العوالمِ يهنأُ وبدونها صرْحُ السلام يُهدَّمُ.

إذن بتطبيق فرض الزكاة بوجهه الصحيح، أي: بالتوزيع الموضَّح في صحائف هذا الكتاب تدخل السعادة من باب سور الأغنياء فتسعدهم وتخرج التعاسة والشقاء من قلوب المحتاجين والفقراء، عندها يحلُّ الإلف والتآلف بحياةٍ إنسانيةٍ سامية، مع العطف والتآخي والمساواة بدلَ التنافر والتعجرف والضجر.

والآن ما هو هذا السبيل!

وكيف يتمُّ هذا التصريف للزكاة الحكيم... مع حضارة القرن الحادي والعشرين!

بل أين نسبة الزكاة المستنبطة من كتاب الله الكريم؟

أسئلة تتطلَّب حلولاً كريمةً منقذةً رحيمةً لبني الإنسان نجدها عند علاَّمتنا مرشدِ مسيرتنا، الكاشفِ لما أُغلقْ.. والخاتمِ لما سبقْ.. نستضيء بها من شموس معارفه الكبرى بهذا الكتاب والتي أشرقت فمحت عنَّا جهالات الدسوس وأزالت الشكوك والشبه ببيان منقطع النظير هو علم اليقين، لأنه لا سند له إلاَّ المنطق الحق من كلام ربِّ العالمين بكتاب الله الحق المبين، وسلامٌ على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

تقديم المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

الزكاة ثالث المدارس العليا للتقوى

والآن وبعد أن تكلَّمنا عن شهادة لا إلّه إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله وعن الصلاة وبعد أن عرفنا بعض ما ينطوي تحتها من معان ننتقل إلى الكلام عن الزكاة التي أشار إليها حديث «**بني الإسلام على خمس..** » في قوله ﷺ «**وإيتاء الزكاة..**» فنقول:

الزكاة: تعني الطهارة لغة وتعني الكمال.. يقال زكى الطعام أي أصبح طيباً لذيذاً خالياً من الشوائب والنقص.. وبالزكاة تطيب النفس والجسد والحياة، ويهنأ المجتمع ويبلغ ما يصبو إليه من الكمال كما يسمو ويخلص من الفقر والحرمان والصفات المنحطة كالحقد والبغض والألم والشكوى ويهنأ بالعيش في ظلال المحبة والتعاون والفلاح فمن هذا الحديث الشريف يتبيّن أن الزكاة هي إحدى دعائم بناء الإسلام الشامخ التي بدونها سينهار البناء كله. حيث أن الصحابة الكرام قاتلوا المرتدين الممتنعين عن تأدية الزكاة ولم ترد في القرآن آية عن إقام الصلاة إلاَّ ورافقتها آيةٌ عن إيتاء الزكاة، إذ أن قيام الصلاة أي صلة النفس بربها لا تنعقد ولا تتم إلاَّ بتأدية الزكاة؟

إن الزكاة هي تأدية المال الذي هو أثمن شيء على النفس لأنه مادة الشهوات من أجل التقرب من الله، فيكون المزكِّي قد قدَّم عرض الدنيا ابتغاء الآخرة وابتغاء مرضاة الله والتقرب زلفى إليه. والنفس تتبع عملها.

وقال سيدنا عيسى عليه السلام: «**قلبك حيث تضع كنزك فضع كنزك في السماء**». فبتقديمنا للزكاة لإرضاء الله في الإحسان لمخلوقاته إذ أنه تعالى غنيٌّ عنَّا وعن أموالنا ولكنه لا يطلب منا إلا المودَّة في القربى وبهذا يتم رضاه عنَّا وتصبح نفوسنا واثقة من إحسانها فتقبل على ربها وتطهر بإقبالها المبني على عملها، إذ حين تقبل على الله واثقة من إحسانها يسري النور الإلّهي إلى مواضع الشهوات المنحطة في النفس فيطهِّرها من جرثومها الذي يقضُّ مضجعها ويحط من قدرها عند الله وعند الناس فتخلو النفس من شوائبها السيئة وأدرانها وتشفى بنور ربها ويصبح إناؤها مفتوحاً لتنصب فيه الكمالات الإلّهية ويغدو الإنسان إنساناً حقاً وقد امتلأ قلبه بالرحمة الإلّهية والعطف على الخلق والإحسان للناس كافة كل بحسب ما يناسبه.

وبانعقاد صلتها مع ربها لا تخشى في الحق لومة لائم وتكتسي بوشاح الفضيلة والرحمة والشجاعة والكرم وكافة الصفات العليّة وتكتسب عمرها الثمين وتضحى أهلاً لرعاية إخوانها في الإنسانية، فيرفع الله شأنها في الدنيا لتكسبها مطيّة للتقرب زلفى إليه وفي الآخرة يكون بما قدمه من الفائزين المقرَّبين.

هب أن هناك شخصاً نسي في معطف طواه في صندوق /100/ ليرة ثم احتاج لبسه بعد انقضاء عام كامل فوجد أحد أفراد عائلته المئة ليرة التي كان عنها في غنى، وجدها وهو غير محتاج إليها فهل يصعب عليه أن يهب فقط ليرتين ونصف لمن وجدها، أم هل يثقله ذلك وهو ما كان يأمل بوجودها؟ بالطبع لا يصعب عليه، إذ لو بقيت المئة كلها مفقودة لما بالى بها فكيف وكأنه ربح /97.5/ ليرة هبة من السماء؟

وهكذا نسبة الزكاة كما حددها الرحيم في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل. وهب أن هناك /100/ عائلة غنية في مجتمع، متوسط غناه الاجتماعي الإجمالي /10/ ملايين لكل عائلة مما يفيض على مصروفها ونفقاتها السنوية فلو قدَّمت كل عائلة النسبة السابقة أي (2.5%) مما يفيض لديها، وهذه النسبة الضئيلة لن تبال بها تلك الأسرة الغنية، كما لن تسبِّب لها أي فقر أو حرمان أو عجز لأن المال الوفير عندها فائض.

فلو كان ذاك المجتمع فقيراً وكان للعائلات فيه معامل فإن استهلاك المجتمع الفقير لمنتجات معاملها سيكون ضعيفاً لعوز الفقراء وعجزهم عن الشراء بسبب الفقر.

هذه الأمثلة واقعة حقاً في معظم بلدان العالم إلاَّ ما ندر وهذه مشكلة العصر. فلو قامت السلطة بجمع النسبة المئوية الضئيلة المذكورة (2.5%) من الفائض المالي لكل أسرة غنية أو شخص غني فجمعتها لشكَّل مجموعها مبلغاً ضخماً يبلغ /25/ مليوناً من الليرات أنشأت به معملاً فشغَّلت الأيدي العاطلة الفقيرة وكررت ذلك بمشروع خمس سنوات فأنشأت خمسة معامل لما بقي في المجتمع أيدٍ عاطلة عن العمل.

إن العاملين في المعامل والإداريين والرؤساء كانوا قبل العمل لا يستطيعون شراء أسِرّة وسجَّاد ومنتجات كثيرة فحالما عملوا أخذوا يشترون ويتوسَّعون ويستهلكون من منتجات معامل العائلات الغنيّة والتي كانت بضائعها كاسدة بسبب فقر المجتمع الذي بدأ قسم منه يعمل ويتحسّن مستواه المعيشي وبذلك جرَّت لهم الزكاة مغانم كثيرة وازدادوا غنى، وتحسَّن وضع المجتمع عموماً، ولا تنقضي خمس سنوات أخرى حتى يقضى على البطالة بالمجتمع تماماً.. وتصبح سوق منتجات معامل الأغنياء في صنوف أخرى رائجة جداً بسبب تحسن أحوال المجتمع المعيشي الذي سببه إيجاد العمل فينهض المجتمع كله بسبب الزكاة. الغني يزداد وسعة وغنى والفقير يزداد يسراً ويصبح الفقراء ميسورين وتتحسَّن أحوالهم وبالعمل يقوى المجتمع ككل هذا من جهة ومن جهة ثانية تؤخذ أرباح المعامل إلاَّ القليل للصيانة والإصلاح وتوضع في ميزانيات مستقلة وتوزع على شكل رواتب ثابتة على الفقراء الذين لا يستطيعون العمل واليتامى والعاجزين صحيّاً أو سنّاً والأرامل وما إليهم بما يكفي معيشتهم بواسطة أيدٍ نزيهَة أمينة ولها رواتب ثابتة منها، وبهذا يتم القضاء على كل مشاكل المجتمع بكل وجوهها.

ولو نظرنا للإله من ثنايا صنعه لذهلنا إعجاباً وتقديراً بالكمال الجاري والساري على أي مخلوق وليكن نباتاً أو شجرة، إنساناً أو حيواناً، أرضاً أو كوكباً في مجال خلقه الكامل البديع أو بيئته المناسبة أو وظيفته وما إلى ذلك من الكمالات التي يعجز عن إيجادها سواه، إذ لو تأملنا وأمعنا النظر فسنتحقَّق من كماله المطلق في كل الوجوه التي وضع بها.

هذا صنعه تعالى فكلامه جلَّ وعلا يماثل أفعاله. فإذا طبَّقنا قوله فسيسمو بنا لنتائج مثمرة مفيدة بشكل صاعق لنفع المجتمع ككل وكل فردٍ عضو فيه.. وكما أن الله سبحانه للجميع كذلك فإن نصائحه للجميع. إذ أن سعي الإلّه ومحاولاته هي لخير الجميع بكافة الوجوه.

فلو طبقنا توزيع الزكاة فسيتأمن نمو ثروة الأمة بتوازن منطقي ثابت، كما تتأمن العدالة الاجتماعية والرضى النفسي والشعور بالرفاه لدى الشعب كله. كما سيضمن بصورة عملية لا نظرية أن النشاطات الاقتصادية الناتجة عنه ستكون بمنفعة البلاد واقتصادها على خير الوجوه وهذا ما تعجز عن تحقيقه كافة الأنظمة الغربية والشرقية عملياً. هذا ويمكن تحقيق هذه الأهداف عملياً لأنها من صنع الإلّه الذي يسيِّر كافة الكائنات بنظام كامل لا يخطئ. قال تعالى:{**..وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ..**}[94].

إنَّهُ لمن المسلَّم به من وجهة النظر الإسلامية أنه لا يجوز أبداً إذلال الفقراء من المؤمنين مهما بلغت بهم الفاقة والعوز.

إذاً فكيف يتسنَّى أن نسد عوزهم ونعمل على إسعادهم دون المساس بكرامتهم وعزَّتهم ودون إذلالهم حافظين لهم كرامتهم وعزتهم والمؤمن عزيز لا يجوز إذلاله لقيم مادية، لذا فإن توزيع الزكاة على الفقراء من المؤمنين لا ينبغي أن يتم ويدهم سفلى ويد الغني المترف هي العليا أي ينبغي أن يتم العطاء بنظام صارم في الدقة تماماً كنظام الكون الذي يسيّره الله بنظام صارم في الدقة أيضاً.

فالكون والخلق يجريان بنظام بديع ناجح يدعو إلى الإعجاب والتقدير وبديمومة لا تتناقص أو تضعف على كر الدهور ومرّ الأجيال وهكذا يقتضي أن يكون توزيع الزكاة كما أرادها وأمر بها الله.

فإن طبقناها كما سبق حصلنا على الميزات التالية:

- لا تبقى معاناة ولا فقر في البلاد ولن يسمح بعودتها بذلك أبداً.

- تزداد ثروة الأمة وتنمو حيث تزيد مشاريع ومعامل الزكاة والثروة العامة.

- بذلك تدار أموال الزكاة بحكمة ونظام وتنشأ معامل ومشاريع دوماً، والذين يشكُون البطالة أصبحوا بذلك مطلوبين ومرغوبين للمعامل الجديدة.

- أُبدل النشاط محل البطالة والعاملون بإمكانهم الآن شراء مواد ومنتجات بضائع معامل الأغنياء المساهمين في الزكاة وعادت عليهم بالرواج والأرباح التي ما كانت لتتم لولا دفعهم الزكاة.

وبذا يزداد الأغنياء غنى ولا يبقى فقير ولا عاطل.. فكل الناس مكتفين وراضين ومسرورين.. ولا شكوى أو تذمر في المجتمع بل المجتمع كله مترابط ومتحابب ومتفائل.

إن ثروات من كانوا فقراء هي بصورة غير مباشرة هبات الأغنياء المفروضة، لذا فالفقراء سيحبُّون الأغنياء لأنهم سبب يسرهم.. والأغنياء سيحبُّون الفقراء لأنهم قدموا لهم المال الغالي على نفوسهم والمحتل جزءاً منها عن رضى لإرضاء الله لذا ستتعلَّق نفوسهم وراءه

---

[94] سورة المنافقون:8.

بهم بعامل المودة تماماً كما يشعر الآباء بالعطف على أولادهم الذين كلَّفوهم غالياً وعلى كلٍ فالكلُّ مزدهر متقدم.

فالزكاة تولِّد الحب والود والعطف بين أفراد المجتمع. الفقير يحب الغني ويتمنَّى له زيادة الغنى لأنه بذلك سيزداد عدد المصانع فيكثر الطلب على اليد العاملة وتصبح مطلوبة فتزداد الأجور ارتفاعاً لقلَّة اليد العاملة مع ازدياد المشاريع بتوالي الزكاة.. والغني يعطف على الفقير لأنه بصورة غير مباشرة كان بتزكيته سبباً لكفافه وتشغيله لعمله مما أورث هذا الغني ثقةً يزهو بها بنفسه، والعلاقة الحبيّة والودية بين المربي والمكفول واقعة لا تُنكر وهي قوية.. وبالزكاة تنمو المشاعر الإنسانية السامية بين أفراد المجتمع ويصبح المجتمع متحابّاً قوياً لا يستطيع الأجنبي الإيقاع بين أفراده ولا تفريقه لشيع يقتل بعضها بعضاً فإذا جاء هذا المجتمعَ من يدعو للثورة على الأغنياء هبَّ الفقير ثائراً على من يدعو للفرقة والثورة لمن يحب، بل لكشَفَ عداوة العدو وقام ضده. فالزكاة تجمع البشرية وتؤلف بينها على المحبة والتعاون والإخاء.

فالكامل المطلق هو الله وهو الذي يشرِّع كل كمال ومهما بلغ الإنسان بالفكر والذكاء فما دام غير مهتدٍ بالإلّه الكامل فلا بد من خطيئة يتم فيها الدمار. فتوزيع أموال الزكاة المنظم مفتاح لحل كافة مشاكل المجتمع ونفعه ويفقد قيمته الحقيقية إن وزِّع عفوياً وبدون حكمة أو بصيرة.

فكل ما في الكون يعمل بتسيير الله بنظام صارم بالدقة كالشمس والقمر ودوران الأرض والنجوم، ولذا فالخلق للإنسان والحيوان والأشجار يحقق كماله وليس هناك صدفة أو جزاف، بل لكلٍّ قانون ولتوزيع الزكاة أصول، والله الرقيب القائم علينا يريد منا أن ننفق على الفقراء والمعوزين وأن نعمل ما فيه إصلاح وصلاح المجتمع ونقدِّم المعروف والإحسان لفائدتنا ومنفعتنا فقط.. والله وحده هو الغني ولا يحتاج إلينا أبداً، إذ هو الخالق لكل الخلائق المانح للوجود وجوده المتفضِّل على الكل بالحياة والنمو والممد للمخلوقات الحية والمنعم عليها بالهواء والنور والماء وبقوة الأبصار والسمع ودوماً معها ويمدها بما تحتاجه بكل ظرف وحين. هو تعالى معها يتجاوب رحمة منه مع كل طلباتها ورغباتها، يمدُّ دوماً بطاقات الدوران للأرض والكواكب والنجوم ويؤمِّن حاجاتها. هو الذي يُري الكل ويُسمع الكل ولو أوقف إمداده لحظة عن الكون لانعدم، لكنه جلّ وعلا يريدنا أن نفعل الخير لأن النفوس نتاج العمل كي تصبح نفوسنا خيِّرة. فبعملنا المعروف والخير لمخلوقاته المحبوبة لديه "لأنه هو خلقها وربَّاها" تتكوَّن بنفوسنا ثقة برضائه عنَّا. وبكسب ثقتنا بعملنا تجاه من يحب تتقرّب نفوسنا إليه تعالى وتكسب من هذا الكامل العظيم صفات الكمال ونصبح إنسانيين ونعمل الإحسان أيضاً ونعود إليه بعد هذه الحياة وهو راضٍ عنَّا وندخل جناته كما وعدنا قال تعالى: {**..ادخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**}[95].

---

[95] سورة النحل:32.

فهو تعالى يحثنا على الزكاة وأدائها بما لا ينقص كرامة المؤمنين، إذ لهم العزة بعد الله ورسوله.. قال تعالى: **{يَمْحَقُ اللهُ الرِبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ..}**[96] يربيها الله بهذا الطريق.

[96] سورة البقرة:276.

استنباط نسبة الزكاة من آيات كتاب الله الكريم

لا تضع نصب عينيك المال بل ردُّ أخيك للحق، عندها ينصرك الله، قال تعالى: **{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلذِي القُرْبى وَاليتَامى وَالمسَاكينِ وَابْنِ السَّبيلِ..}**[97].

فأما الخمس لله يوضع في بيت المال، وإما أن يوزِّع الرسول الغنيمة حسب المصلحة. والخمس الثاني لذي القربى المؤمنين بسبب معرفة المرء بأحوال أقربائه المادية، واليتامى الناشئين عن الحروب لهم الخمس كرواتب، والمساكين وابن السبيل توزع مخصَّصاً لهم أما الخمس الأول فيوضع في بيت مال المسلمين ويتم صرفه على الوجوه الثمانية الواردة في سورة التوبة، قال تعالى: **{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكينِ وَالعَامِلينَ عَلَيْهَا وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفي الرِّقَابِ وَالغَارِمينَ وَفي سَبيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبيلِ فَريضَةً مِنَ اللهِ واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ}**[98].

{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ}: ما عنده مال. **{وَالمَسَاكينِ}**: ضعفاء عن الكسب. **{وَالعَامِلينَ عَلَيْهَا}**: من يشتغل لصالح الدولة. **{وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ}**: ليقوى إيمانهم. **{وَفي الرِّقَابِ}**: فك العبيد. **{وَالغَارِمينَ }**: المدين المكسور. **{وَفي سَبيلِ اللهِ}**: لتجهيز العتاد والسلاح والإمداد والتموين. **{وَابْنِ السَّبيلِ}**: مسافر منقطع. **{فَريضَةً مِنَ اللهِ}**: لهم. **{واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ}**.

وبما أن هناك خمسة وجوه وزّع الخمس الأول منها على رواتب ثابتة من بيت مال المسلمين على ثمانية وجوه استحقاقاً فيكون:

40/1=8/1 × 5/1 = 8 ÷ 5/1

وأيضاً هذه النسبة مئوياً = (2.5%)

فلا بد من مساهمة كل مسلم بهذه النسبة وليعتبر من طائفة المسلمين فمن زاد عنها فهي صدقة تزيد في صدق الإنسان وقربات عند الله ألا إنها قربة لهم. ولزيادة الإيضاح:

أكرر:

كل 40 ل.س تعادل 1 ل.س زكاة

كل 40 ل.س تعادل 1 ل.س زكاة

كل 20 ل.س تعادل 0.5 ل.س زكاة

المجموع:

كل 100 ل.س تعادل 2.5 ل.س زكاة

---

[97] سورة الأنفال:41.

[98] سورة التوبة:60.

وهي النسبة المعروفة استنبطناها من كتاب الله العليم جلَّ وعلا.

وبطريقة أوضح: إن خمس الغنائم تساوي (20%) منها:

(20%) ÷ (8) = (2.5%)

وهي نسبة الزكاة تقسَّم على الوجوه الثمانية.

زكاة الفطر

فغاية الصوم والحج كما سترى أيها القارئ الكريم هي التقوى وهي أرفع المنازل العليّة لأن النفس تصبح مستنيرة بالله بمعية سراجها المنير رسول الله ﷺ. قال تعالى مبيناً غاية الحج: **{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فيهنَّ الحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ في الحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ}**[99].

وقال تعالى مبيناً الغاية من الصوم: **{يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**[100].

وهذا لا يتأتّى إلا إذا قدَّم الإنسان من المال الغالي على النفس. قال تعالى: **{لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ..}**[101].

فكما يقدِّم الإنسان أعمال البر والصدق والخير والأضحيات بالهدي في الحج فإنه بشهر الصيام شهر ليلة القدر عليه أن يقدم بالتالي ما يماثل ذلك، ومن هنا سُنَّتْ صدقة الفطر لكي تعود النفس إلى فطرة الكمال التي فطر الناس عليها وتخلص من صفاتها البهيمية وتغدو إنسانية سامية من كل الوجوه والتعبير العملي لمصداقية النفس بطاعتها لربها تتجلى بعملها السامي أي بما تقدمه من الزكاة، إذ الصوم والصلاة وسائل للمعروف وعمل الإحسان ويتبيَّن من ذلك أن زكاة الفطر أساس لا يُستغنى عنه ولا يستغني عنه الصائم أبداً ليصادق على صيامه فينال شهادة التقوى. كما لا تقبل شهادة الدكتوراه إن لم تمهرها وزارة التعليم العالي بختمها ومصادقتها. فثمرة الزكاة لنا ونفعها ومردودها علينا بالخير العميم دنيا وآخرة. بها تنعقد المحبة بين الغني والفقير وتنشأ أواصر الإنسانية في المجتمع وتحل المحبة والتوادد، بدل الخصام والجفاء والتباعد، وغاية الله لنا جميعاً أن نسعد بكل الوجوه، إذ يرقى الغني بعمله كما يشكر الفقير ربّه ويحب أخاه ويتقرب أيضاً إلى ربِّه الذي فرض له هذا الخير.

من ذلك يتوضَّح أنه ليس هناك نسبة محددة لزكاة الفطر فكلٌّ يجود بحسب قيمة صومه عنده وبحسب ما نال من الخير يبذل تجاهه ثناءً وشكراً. فالفقير يقدم بحسب حالته وإمكانيته والغني يقدم بحسب إيمانه واستفادته القلبية ما تجود به نفسه وتسمو به همته لإرضاء مولاه. قال تعالى: **{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ..}**[102].

---

[99] سورة البقرة:197.
[100] سورة البقرة:183.
[101] سورة آل عمران:92.
[102] سورة فصلت:46.

{إِنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنّا لا نُضيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً}[103] فالزكاة في مجتمعٍ إسلامي تضاف لبيت المال "الخزينة المالية" لتوزَّع على الفقراء بالأسلوب الذي يضمنً عزة نفسهم وكرامتهم.

وزكاة الفطر لا تقدم اعتباطاً بل عن كل فرد من أفراد العائلة صغيراً كان أو كبيراً يافعاً كان أم رضيعاً. قال تعالى: **{وَالَّذينَ في أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}**[104].

ويُفضَّل دفعها قبل حلول النصف الثاني من رمضان من أجل أن يتمكَّن الفقير من أن يهيء لنفسه وبنيه ما هم بحاجة ماسة إليه.

والحمد لله رب العالمين

---

[103] سورة الكهف:30.

[104] سورة المعارج:24-25.

رابع المَدَارِس العُليَا لِلتَّقوى

مقدمة

حقيقة الصيام وحكمته

يا إنسان؛ لقد منحك تعالى أهلية لترقى وتسمو لأعلى كمال، ففكِّر لتبلغ هذا المقام العظيم الذي رُشحت له.

نعم منحك آلة تامة، جوهرة غالية؛ إن استفدت بها تغدو بصيراً، فلا تستهوي نفسك بعدها هذه الدنيا الدنية وما فيها من مفاسد وما يعقبها من خزي وعار، إذ ترى حقيقتها. إن فكَّر الإنسان ببدايته فرأى نفسه لا شيء، نظر في تربيته وتربية ما حوله من الكون رأى عظمة ربه، نظر في نهايته فعرف أنه راحل، وما هذه الدنيا بدار مقام، عندها يصدق بطلب الحق، إن صدق المرء بطلب الحق عندها يعطيه الله.

إن بلوغك هذا السمو والعلو ليس بصعب أبداً.. انتسب إلى مدرسة الطهارة بصدق واسلك هذه الدلالة بإرادة صادقة، عندها تستهون هذه الرؤية للحقائق، إذ تحظى بها فتسلك قمم المعرفة العليا وترتقي لأفلاك المعالي وميامين الكمال وترفل بوشاحات الأنس. أما إذا شردت نفسك بأهوائها الصبيانية فصبوت لهذه وتلك من متاع الدنيا الزائل وعرَضها الفاني بأن أعرضت عن الوصول للسمو بهذه الأصول فإنك لا تهوى إلاَّ الرذيلة.

ألا أيها الناس إن أعمالكم التي تعملونها ستنطبق عليكم غداً بالحق. الذين أهملوا التفكير فما ساروا بالحق أعمالهم الآن منحطة، لكن إعراضهم عن مبدع السموات سيهوي بهم إلى وديان تعاسةٍ أدنى انحطاطاً، فهم ساعون إليها يهرعون مثابرين على هذا الحال المريع حتى الساعة، عندها تشخص أبصارهم ذعراً وإلى الأبد.

السبب في انهيار الإنسانية إلى هذا الدرك الذي نلمسه بكافة الأوساط البشرية والمصائب والمصاعب والمجاعات والزلازل والأمراض أن البشر كانوا مستكبرين بما عندهم من علم وشأن دنيوي.. لا سيما في مجال الاختراع والإبداع الدنيوي؛ يتسامرون باللهو واللعب والفسق ويهجرون الحق.

أفلم يروا ما في هذا البيان العالي الرفيع والدلالة المنطقية التي تزخر بالحق والكمال من منطق حق!

هل هذا غريب، أين وجه الغرابة، أما أرسل تعالى لكافة الأمم رسلاً! أما قارنوا أعمالهم بأعماله، أما علموا كماله.. غداً كلُّ امرئ يقول: "نفسي.. نفسي".

والآن الصوم لا يتحقَّق لامرئ ما لم تكن أعماله كلها ودون استثناء إحساناً. الحقيقة أن النفس حرَّة بإرادتها واختيارها؛ منحها تعالى الإطلاق والحرية، فأنت لا تستطيع إجبار نفسك كرهاً، بل بالحجة والبرهان المنطقي.. فإن أقنعتها سارت معك ووافقتكَ، إن أحسنتَ وأصلحتَ عندها تُقبل نفسك على الله تعالى منبع الخيرات كلها وموئل الفضائل فتتشرَّب نفسك الكمالات؛ أما إن أفسدتَ صومك بمخالفةٍ فلن تستطيع الإقبال، إذ حلَّ بساحتها الخجل وفقدت الثقة.

والآن كثير منا يصوم صورةً عن الطعام والشراب ولا يصلِّي، يحجُّ ويشتغل بالربا، يؤمن بما يناسب هواه ويكفر بما يُعارض شهواته. مثال لذلك: الأندلس دولة عظيمة، لكنها زالت، إذ كانوا يستعينون بالأجانب على بعضهم البعض، كذلك اليهود أهل الكتاب كانوا يستعينون بالعرب الوثنيين على بعضهم بعضاً.

أما المؤمن فيؤمن بالكل، فلا يطبِّق واحدة تناسب هواه ويترك الأخرى لأنها لا تتناسب وشهواته، أي يجاهد النفس والهوى.. فمن يفعل ذلك، أي يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضٍ يحصل له ما حصل لهم.. عرف الحق وما سار به، ولكن المصير المرعب حينما يذهب للآخرة فلا يجد له عملاً صالحاً يصلح للإقبال على الله وخالصاً من الغايات بأعراض أو أموال الناس فيحترق حزناً، إذ تستيقظ فطرة الكمال فيه وقد زالت الشهوات والأهواء فلا يجد دواءً لحريق نفسه ولا تسكيناً لها إلاَّ بالنار وبئس العلاج وساءت مرتفقاً. أما إن أقبلت النفس على الله واثقة من عملها الطَّيب النزيه عن الغايات المنحطة اشتقت نفسك الكمال وازدانت به فأحبَّت أهل الكمال وصاحبتهم مقدِّرة كمالهم السامي، عندها تدخل معهم على الله تعالى وتنساح في بحور الجلال والجمال الإلّهي.. بذا تكون قد توسَّعت ونمت بالحب الإلّهي الصافي الشريف فتجردت عن الدنايا والأغراض النفسية، فلا تطمح لمردودٍ لإحسانها من المخلوقات، بل من بارئها خالق الخيرات، عندها تستنير بنوره تعالى وترى الخير من الشر **{فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي}**[105].

وهذه ثمرة الصوم كما بالحديث القدسي: «**كل عمل ابن آدم له إلاَّ الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به**». فبه نوال ليلة القدر، إذ به بعدها تُعرض نفس الصائم عن المنكرات وتكرهها لمشاهدتها ما فيها من شرور بالنور الإلّهي الذي اشتقته بهذه الليلة المباركة، ويحظى الصائم حقّاً بتُحف المكرمات وهذا الباب مفتوحٌ لكلِّ مؤمن.. فاحذر عندها من الانقطاع عن الله، تعالى فتكون صلاتك كاملة صحيحة.

إذ أن المؤمن بإيمانه وصيامه يُحفظ من الوقوع ويكتسب ثقةً فيُقبل على الله تعالى ويصلِّي الصلاة التي يحصل بها على الطهارة القلبية من حضرة الله تعالى فتطهر النفس من كافة الشوائب ويغدو الصائم طاهراً نقيّاً كيوم ولدته أمه، عندها ينطلق للإصلاح وفعل المعروف وعمل الإحسان، إذ غدا إنساناً بحقيقة ما تحويه الإنسانية من معنى سامٍ، فقد استأنس بالله منبع كل خير ونال الخير فأفاضه على الناس دون أجر ولا غاية، عندها يستأنس الخلْق به، لذا خُلقنا لنكون إنساناً فنَسعَد ونُسعِد وتغدو الجنة في الأرض ويحلُّ في ربوعها السلامُ والمحبة الشريفة الإنسانية والعيش الرغيد الهنيء.

وهذا مراد أرحم الراحمين رب العالمين، فهو ليس ربُّ أمة دون أمة، وليس ربنا فقط، بل ربُّ العالمين قاطبةً يبغي السعادة للعالمين كافة.. سعادة دنيوية فأُخروية سرمدية.. سعادة كبرى يحظى بها وينشرها الصائم المؤمن.

تقديم المربي الأستاذ

---

[105] سورة الفجر:29-30.

الصيام رابع المدارس العليا للتقوى

إن مدرسة الصيام هي المدرسة العليا التي جعلها الله سبحانه وتعالى مدرسة لنيل التقوى.. ولهذا أمر عباده بالصوم ليفوزوا بتلك الشهادة العالية وليحظوا بذلك النور الإلّهي الذي يكون فرقاناً يريهم الخير خيراً والشر شراً. قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**[106].

ففي الصوم تصفو النفس من كدوراتها وتزهد في الدنيا وزينتها وتنقطع الصلة بين النفس وشيطانها فإذا جاء يوسوس لها وعرض عليها زخرف الدنيا وشهواتها أعرضت عنه غير عابئة به فالجوع والعطش شغلا ساحتها فصارت تعاف كل شيء وتنصرف عن كل شيء وبهذا تتوحد وجهتها ويسهل انقيادها إلى خالقها وتوجيهها إلى بارئها.

فإذا رجعت إلى ذاتها وعرفت أنها أرضت الله بصومها وطاعتها وتقرَّبت إليه بعملها وجهادها. إذا عرفت ذلك أغذت السير إلى الله وأقبلت عليه في صلاة التراويح والنفس لا تقبل على أحد إلاَّ إذا أيقنت بأنها محسنة غير مسيئة وصادقة معه ومخلصة وهذا قانون ثابت ولن تجد لسنة الله تبديلاً.. فإذا استمرت النفس على صلتها بربها ودامت على صلاتها وظلت عاكفة في حضرة بارئها مقبلة على خالقها كان لها في ذلك حياة وانتعاش وروح وريحان وزلفى وقرب من الرحيم الرحمن صاحب الجود والإحسان وبهذا تتسامى وتسمو وقد لا تحصل على ذلك في غير رمضان وتتفتَّح منها البصائر وتنكشف لها الحقائق والصوم لها على ذلك خير معوان.

هذا وقد عرَّفنا الرسول الكريم بمشروعية الصوم مبيناً سبب الأمر الإلّهي به وذلك في حديث من الأحاديث القدسية التي بيَّنها ﷺ عن لسان حضرة الله عزّ وجل، إذ يقول: **«كُل عمل ابن آدَم له إلاَّ الصيامَ، فإنه لي وأنا أجزي به..»**[107]، وفي كلمة (إلاَّ الصيام فإنه لي) بيان للثمرة من الصوم والغاية السامية منه. وإذا كان الوضوء يهبك حيوية ونشاطاً ويجعلك أهلاً لأن تقف بين يدي الله في الصلاة وإذا كانت الغاية من الصلوات الخمس إيراد نفسك مورد الكمال ووقوفك بين يدي الله للتعرُّف إلى القانون الذي أنزله ربك والذي يجب أن نسير عليه لنكون من السعداء.

ففي الصوم تصل إلى غاية الغايات، وفي الصوم تصل النفس المؤمنة بصلاة التراويح إلى أسمى منازل الإنسان إذ تصاحب إمام الرسل وترافق سيد الكائنات، ثم تدخل برفقته ومعيَّته على الله فتشاهد ما تشاهد من جلال الحضرة الإلّهية وترى ما ترى من كمالها. وهكذا فبالصوم تصل النفس إلى المحبوب لديها أكثر من كل شيء. إنها تصل إلى أصل الوجود ومصدر الكون فتشاهد الأسماء الإلّهية الحسنى وترى ما ترى من آيات ربها الكبرى. وفي

---

[106] سورة البقرة:183.
[107] صحيح البخاري 88/4

الحديث القدسي الشريف: «**ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء وإن فتُّك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء**»[108].

تلك هي الثمرة من الصوم وذلك ما نفهمه من حديث: (إلاَّ الصيام فإنه لي) فغايته تعالى من أمره إياك بالصوم أن يوصلك إلى جنابه العالي الرفيع ويذيقك من رحمته ويشهدك طرفاً من جلاله وجماله وينير قلبك بقبس من نوره تمشي به في حياتك فلا تضل أبداً وهنالك تكسب هذه الحياة الثمينة فلا تعود تقع في مكروه ولا تقصّر في عمل من أعمال الخير حتى إذا انتهت بك مرحلة العمر وانقطعت الحياة دخلت في النعيم المقيم وآويت إلى كنف ربك الرحيم. قال تعالى:{**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**}[109].

ونتكلم الآن عن ثمرة الصوم وما يعود به من الخير على هذا الإنسان.. وخاصة إذا حصلت للصائم في رمضان ليلة القدر. فما هي هذه الليلة؟ قال تعالى: {**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ**}[110].

القدر: هو مبلغ الشيء، والقدر: هو الحال والشأن، يقال قدَّر فلان هذا الأمر، أي عرف حاله وشأنه. وقدَّر الإنسان خالقه أي: عرف عالي شأنه وعظيم جلاله وكماله.. ولكن كيف تكون معرفة الله ورؤية عظمته وجلاله؟ وكيف يقدِّر المخلوق خالقه حق قدره.

أقول: لا يصل الإنسان لهذه الحالة الرفيعة إلاَّ بعد شهوده عظمة الله، ورؤية كماله، فأنا لا أعرف قدرك إلاَّ إذا رأيتك، أو إذا رأيتك على رأس عملك أو في حال ممارستك لشؤونك، أو إذا رأيت صفاتك التي تشهد لي بعلوِّ قدرك، وتنطق بسموِّ مكانتك وعظيم شأنك.. وكذلك النفس لا توقن بعظمة خالقها إلاَّ إذا شهدت عظمة ذلك المالك العظيم في ملكوته، قائماً بالتربية والإمداد على خلقه، مفيضاً برَّه وإحسانه على سائر مخلوقاته، غامراً الكون برأفته وواسع رحمته.

فالإنسان بعد أن آمن بربه إيماناً غيبياً، وبعد أن أقرَّ بعظمة الخالق ورحمته إقراراً فكرياً، إذا هو استقام على أمر ربه، ومَرِن على طاعة الله، فلم يخالفه، ولم يعصه في أمر من أوامره، فلا بدَّ له إذا هو استمر على هذا الحال من الاستقامة والطاعة، وثابر على التقرُّب إلى الخالق بالإحسان إلى المخلوقات كافة؛ من ساعة يشهد فيها كمال الله سبحانه شهوداً نفسياً ولابد له من حالة تنغمر فيها نفسه بذلك النور الإلّهي، فترى عظمة خالقها وموجدها وتعاين حنانه تعالى عليها، وواسع عطفه ورحمته بها وبالمخلوقات جميعها، وهنالك تعرف قدر ربِّها وتوقن برحمته وعطفه عليها.

---

[108] الزبور، إحياء علوم الدين: الجزء الرابع، ص469 بلفظ: «**من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني فقال أبو الدرداء: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا**».

[109] سورة العنكبوت:69.

[110] سورة القدر

وتلك الليلة العظيمة التي يشهد فيها الإنسان هذه المشاهدة النفسية، ويرى هذه الرؤية الذوقية، وتحصل له بها تلك المعرفة الشهودية، تلك الليلة هي ليلة القدر أي: ليلة رؤية الإنسان عظمة الخالق وتقديره كمال الله.

أقول: وفي تلك الليلة، وإن شئت فقل في تلك اللحظة التي تحصل فيها هذه المشاهدات النفسية، ينطبع في قلب هذا المؤمن الحق، فتتنزل في قلبه حقائق الإيمان والقرآن كلها، فيغدو عارفاً بالمراد من الآيات وحكمتها ولذلك قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: **{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}** أي: إن تنزيل ما انطوى عليه القرآن الكريم من الحقائق على قلبك إنما كان في ليلة القدر، أي ليلة مشاهدتك لعظمة ربك وتقديرك لخالقك.

والله تعالى لم يخاطب رسوله بهذا الخطاب إلاَّ ليبيِّن لنا أنه لا يحصل للإنسان العلم بحقائق القرآن ولا تكون المعرفة الصحيحة بما فيه من الآيات التي ملؤها السعادة والخير وقوامها الحق والإحسان إلاَّ في ليلة القدر.

فهذه الآية الكريمة تبيِّن لنا أن العلم الصحيح لا يكون إلاَّ عن الله، ولا يُكتسب إلاَّ من الله.. فهذا الهدى الذي جاء به رسول الله ﷺ، وهذه الدلالة والعلم الذي بيَّنه للناس، والذي لا يستطيع البشر قاطبةً أفراداً وأمماً قروناً وأجيالاً أن يأتوا بمثله ولو كان بعْضهم لبعضٍ ظهيراً.

كيف تسنَّى للرسول الكريم ﷺ وهو الذي لم يدرس من قبلُ في كتاب، ولم يتلقَّ العلم عن أحد من الناس، كيف تسنَّى له وحده أن يأتي بما جاء به من الهدى متحدّياً العصور والأجيال مبيّناً عجزهم عن الإتيان بمثله!!

إن هذه الآية لتدحض ما زعمته قريش، وما يزعمه أولو العقول القاصرة، أن القرآن إنما هو من وضع رسول الله ﷺ، فهي تبيّن لنا ذلك المصدر السامي الذي تلقى منه الرسول ﷺ هذا الهدى، وهذه الدلالة إلى طريق الحق طريق الإنسانية والسعادة الكاملة معلنة أن ذلك الهدى والكمال الذي جاء به رسول الله ﷺ إنما هو تنزيل من الله أنزله على قلب رسوله الكريم في ليلة القدر، ليلة تقديره كمال ربِّه وتعظيمه لخالقه كما أن هذه الآية الكريمة تنفي ما تقوَّله بعضهم من أن فهم القرآن يحتاج إلى ستة عشر علماً من العلوم المختلفة والانكباب على دراسة تلك الكتب المطوَّلة.. فما الدراسات المفصَّلة بمجدية عن معْرفة الحقيقة شيئاً. ولا تحصَل للإنسان المعرفة الصحيحة إلا إذا تعرَّض لنفحات الله سبحانه، وفاز بتلك الليلة المباركة.

ليلة القدر

ولكن هل هذه الرؤية ميسورة لكل شخص؟ ومتى هي ليلة القدر؟

أقول إن العدالة الإلّهية تقضي بأن لا يكون العطاء الإلّهي قاصراً على شخص دون شخص، فكلٌّ مَنْ أعدَّ نفسه الإعداد المطلوب لهذه المشاهدة وإن شئت فقل أيُّما امرئ أطاع ربه حق الإطاعة فلم يتهاون في أمر من أوامر الله سبحانه وتعالى، ولم يتلبَّس بثوب من أثواب المعصية، فلابدَّ له من الإكرام بهذه المشاهدة والفوز بتلك الليلة:

فالنفس العاصية المسيئة تُحجب عنها، إذ أنها تقف في صلاتها خجلى من ربها، معرضة عنه بوجهها، وهي والحالة هذه لا تستطيع أن تقبل على الله تعالى، وهي إن وقفت في صلاتها فوقوفها صورة لا حقيقة، وسيئاتها حجاب وسترٌ بينها وبين الله تعالى.

أما النفس المطيعة فمن لوازمها أنها إذا وقفت بين يدي ربها فإنها تقف متجهة مقبلة ذلك لأن إحسانها الذي تحمله بين يديها يجعلها فخورة بعملها واثقة مطمئنة من رضاء الله تعالى عنها.

فالاستقامة على أمر الله والتقرب بالعمل الصالح إلى الله، كلاهما الشرطان الأساسيان وإن شئت فقل هما الجناحان اللذان يجعلان النفس تطير إلى تلك الآفاق العالية وعندها تشهد ما تشهد من كمال الله سبحانه وتتحلى بالفضيلة والمعرفة.

أما الموسم المناسب الذي تتهيأ فيه النفس لتلك الحالة من الرؤية، والفوز بتلك الليلة المباركة، فإنما هو شهر رمضان، وفي العشر الأواخر منه، تلتمسُ كما أخبر الصادق المصدَّق عليه أفضل الصلاة والسلام، ذلك لأنه يتوفَّر للصائم حينئذٍ ذانك الشرطان الأساسيان، فالجوع والعطش في رمضان عونٌ على القطيعة بين الإنسان والشيطان، والإنسان قد مَرِنَتْ نفسه طوال نهارها على هذه القطيعة الميمونة، تجده غير خجل من ربه إطلاقاً.

كما أن له من طاعته لله بصيامه سبباً عظيماً وحافزاً قوياً يحفزه على الإقبال على ربّه فإذا وقف عشاءً للصلاة بعد أن تناول يسيراً من الطعام والشراب، وقف وكله اتجاه وإقبال وطارت نفسه، تحلِّق في ذلك الأفق العالي لا يعوقها عائق، ولا يقف بينها وبين خالقها حجاب وإنك لتجد الصائم بمجرد دخوله في الصلاة لا يلبث أن يرى نفسه مغموراً بفيض من نور الله، شاخصاً ببصيرته إلى الله، يعبده حق العبادة لأنه يراه ولا يزال يعيد الكرة يوماً فيوماً، وليلة بعد ليلة، حتى إذا أقبل العشر الأواخر من هذا الشهر وقد صلب عود النفس وأصبحت لذلك النور الإلّهي أكثر تحملاً، ولمشاهدة ذلك الكمال الإلّهي أهلاً، هنالك ينكشف لها عن كمال صاحب الجلال والجمال طرف من الستر، فتشهد ما يتناسب مع حالها من جماله وجلاله وعظيم صفاته، وترى الكون كله قائماً بإمداده وتسييره، سابحاً بفضله وإحسانه، مغموراً برحمته وحنانه.. وبشهود الإنسان ذلك الجلال الإلّهي والجمال وبرؤيته كمال ربه المتعال، وبتطلُّعه إلى الرحمة الشاملة. ولذلك العطف والحنان، يمتلئ حباً بذي الجلال والإكرام والعطف والإحسان.

والنفس بفطرتها مجبولة على حب الجمال والكمال، مشغوفة بتقدير صاحب الإحسان وبهذا الحب السامي لصاحب الكمال سبحانه، تصطبغ النفس بصبغة الكمال، وهذا النوع من الحبِّ هو وحده المهذِّب لأخلاق الإنسان، والمحوِّل للنفس من حالٍ إلى حال.

فإذا قُضيت الصلاة، وعاد المصلي من ذلك السَّفر الميمون، عاد بخير زاد، عاد والفضيلة إلفهُ وأليفهُ، والكمال رفيقه وحليفه، والتقوى زاده، والإحسان إلى الخلق كافة همَّهُ ومراده.

تلك هي ليلة القدر التي يشهد فيها العبد عظمة ربه، وسامي صفاته، ويتنزَّل فيها القرآن على قلبه، تلك هي ليلة القدر التي زيَّن الله بها شهر رمضان، تلك هي الليلة التي يجب أن يفوز بها كل إنسان ليخرج من صف الحيوان وينتظم في سلك بني الإنسان، المتَّصف بالرحمة والإحسان والحنان ومن مات ولم يشهد ليلة القدر فقد أضاع حياته وخسر هذا العمر. قال تعالى: **{..وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيَا في الآخِرَةِ إلاَّ مَتَاعٌ}**[111].

{وَمَا هَذِهِ الحَياةُ الدُّنْيا إلاّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإنَّ الدَّارَ الآخِرةَ لَهِيَ الحيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[112].

وقد أراد تعالى أن يبيّن لنا عظيم شأن هذه الليلة فقال تعالى: **{وَمَا أدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ}** أي: وما أعظم هذه الليلة، وما أكثر الخير الذي يناله الإنسان في ليلة القدر، وإنك أيها الإنسان لعاجز عن الإحاطة بما في ليلة القدر وذلك الفضل والخير الذي يناله المؤمن في هذه الليلة المباركة. ثم فصَّل الله تعالى ذلك بقوله: **{لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}**.

و (الألف شهر): هي أربع وثمانون سنة تقريباً، فإذا أضفنا عليها سنَّي الطفولة والمراهقة كانت حصيلة ذلك مائة عام على التقريب. فليلة القدر، أي: أنَّ العلم والمعرفة والفضيلة والكمال الذي ينطبع في نفس المؤمن في تلك الليلة، وإن شئت فقل في تلك اللحظة، خيرٌ مما يحصل عليه امرؤ عاش مائة عام قضى منها الألف شهر في الصيام والدراسة الجادَّة لاكتساب المعرفة.. فالغافل المعرض عن ذكر الله مهما امتد به العمر وطال حتى ولو أنه عاش مائة عام، فليس يجني من عمره إلاَّ الشقاء والخسارة، ولا يعود على الناس من عمله إلاَّ الإيذاء والإضرار. أما المؤمن المقبل، فعمره كله خير، وحياته كلها إنسانية وإحسان وما ليلة القدر التي يفوز بها إلاَّ مدرسة يتعلَّم فيها الفضيلة والإنسانية والرحمة والإحسان، وشتَّان بين غافل معرض حياته كلها شر وإيذاء، وبين مؤمن مقبل ليسَ قصده من أعماله إلا خدمة الخلق كلّهم والفوز برضاء الرحمن.

وليلة القدر: والحالة هذه تلك الليلة التي يفوز بها المؤمن وهي خيرٌ من ألف شهر، أي خير من عمر الكافر كله، ومِنْ حياته التي ليس فيها خير، ولا ينتج عنها إلاَّ الإساءة والخسْران، وإذا كانت ليلة من ليالي القدر التي يُكرَم بها المقبل خيراً من حياة طولها مائة عام من العمر، فأي نسبة بين حياة المؤمن وحياة الكافر المعرض؟ أي نسبة بين علم الأول وعلم الثاني؟ وفي أي منزلة يكون ذلك المعرض بالنسبة لذلك المؤمن المقبل، عمره كله خير، وحياته كلها إنسانية، والذي تتوالى عليه ليالي القدر فمن ليلة إلى ليلة أعلى وأرفع، ومن

[111] سورة الرعد:26.
[112] سورة العنكبوت:64.

معرفة إلى معرفة أرقى وأوسع، ومن منزلة إلى منزلة أسمى وأبدع، إنه ليس من نسبة بين مقبل وبين غافل معرض.. فمهما جدَّ الغافل وكدَّ فلا يبلغ ذرةً مما هو عليه المؤمن من علم ومعرفة وكمال وفضيلة، وما بين الأول والثاني إلاَّ كما بين السماء والأرض.

وهذا مثال نُقرِّب به الحقيقة قال تعالى: **{وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمى وَالْبَصيرُ، وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ، وَلا الظِّلُّ وَلاَ الحَرُورُ، وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ في القُبُورِ}**[113].

أقول: وإذا كانت كل ليلة من ليالي المؤمن، لا بل كل لحظة خيراً من عمر الكافر المعرض كله، فما نقول إذا كانت كل لحظة من لحظات رسول الله ﷺ، ليلة من ليالي القدر. وماذا نقول وكيف نستطيع أن نتصوَّر ذلك الكمال وذلك العلم وتلك الأخلاق النبوية والتي تحلَّى بها قلب رسول الله، وأين نحن من رسول الله ﷺ، وأين البشر كلهم أجمعون منه صلى الله عليه وسل، ذلك البحر الواسع والبدر اللامع، والسراج المنير الساطع، ولكن لا يعرف قدر رسول الله ﷺ إلا من عَرَفَ الله، وفاز بليلة القدر، ولا يعرف الفضل إلا ذووه والله ذو الفضل العظيم.

ثم إنَّ الله تعالى أراد أن يبيّن لنا حال ذلك المؤمن بعد اصطباغه بتلك الصبغة من الكمال والفضيلة، وانطباع الحقِّ على صفحات نفسه الطيبة الطاهرة، فقال تعالى: **{تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا}**.

فالرسل والأنبياء جميعاً بإقبالهم العالي على ربهم وصلوا إلى درجة من الطهارة النفسية والمعرفة الشهودية التي لا يمكن معها أن تميل نفوسهم إلى شيء من الأشياء المنهيَّة، أو أن تنشأ في نفوسهم شهوة من الشهوات المحرَّمة، ذلك لأن النور الإلّهي ساطع دوماً في نفوسهم، والحقائق بادية ظاهرة بصورة مستمرة أمام أعينهم، والملائكة دائبة تتنزَّل بالروح عليهم بإذن ربهم، فهم في رؤية مستمرة متواصلة، وتلك هي العصمة.. وفي الحديث الشريف: «**نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا**»[114].

أما المؤمنون وهم الذين لم يبلغوا ولا يمكن أن يبلغوا منازل الرسل والأنبياء، فهؤلاء قد تعْرض لهم شهوة من الشهوات، وقد تحدثهم نفسهم بميل إلى بعض الأمور المنهيّة، غير أن قلوبهم التي سطع فيها نور الحق من قبْل، تلك القلوب التي رأت الكمال فأحَبَّتهُ واصطبغت به في ليلة القدر تعوذ بربها مما نشأ فيها، وتلتجئ إليه طالبةً الخلاص مما ألمَّ بها وبعياذها بالله، والتجائها إلى الله، يسطع نور الله فيها فيتبدَّى لها الحق ويظهر، وتشهد بذلك النور الإلّهي، "وهو ما سماه الله تعالى بالروح"، ما تشتمل عليه تلك الشهوة، وذلك الميل من الأذى والشر.. قال تعالى: **{وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنّهُ سَميعٌ عَليمٌ، إِنَّ الَّذينَ اتّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ}**[115].

---

[113] سورة فاطر:19-22.

[114] أخرجه ابن سعد في الطبقات 136/1 عن عطاء.

[115] سورة الأعراف:200-201.

وهذا ما بينته لنا الآية الكريمة من سورة القدر، فالروح كما رأينا هي ذلك النور الإلّهي الذي يتجلَّى به الله على قلب عبده العائذ به الملتجئ إليه. **{بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}**، أي: تظهر بها حقيقة كل شهوة، وينكشف بواسطتها ما ينطوي عليه كل أمر من خير أم شر، وإنما تتنزَّل الملائكة بها ذلك لأنهم وسطاء يسري بهم النور الإلّهي على مثل ما تسري القوة الكهربائية في الأسلاك، ويشعُّ نور الله في تلك النفوس المقبلة، فيكشف لها حقائق الأمور، ولا يكون هذا إلاَّ بإذن ربهم، فلا تحصل هذه المشاهدة والرؤية إلاَّ لمن أذن الله له بذلك، فكان ممن أقبل على ربه وتحلَّت نفسه بالكمال من الله وقدّر خالقه تقديراً يتناسب مع وجهته وإقباله. ونجمل القول فنقول:

قد تنازع المؤمن نفسه في شهوة من الشهوات، غير أن الصبغة، صبغة الكمال التي اصطبغت بها نفسه من قبل في ليلة القدر تجعله يرجع إلى ربه عائذاً طالباً منه أن يكشف له حقيقة تلك الشهوة وما فيها من الشر، وهنالك يتنزَّل الروح على قلبه، وتأتيه الملائكة بذلك النور الإلّهي من ربه فتنكشف له الحقيقة التي يطلبها، ثم يرجع إلى القرآن فيجد الآية مصدِّقة لما شهد ورأى، وهنالك يطمئن قلبه، وتهوي إلى الحق نفسه، وفي الحديث الشريف: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[116].

وفي الحديث القدسي الشريف: «**لا يزال يتقرب العبد إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به**»[117].

وبلفظ آخر: «**فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق**»[118].

ومن كان كلام الله دليله في كل أمر من أموره، فسيره كلُّه في أمان واطمئنان، ومن كان نور الله سراجه وضياءه فحياته كلها سعادة وسلام. وقد بيَّن تعالى ذلك بقوله: **{سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}**.

وقد عبر تعالى عن الموت بمطلع الفجر، ذلك لأن الموت ينكشف به الغطاء عن النفوس، فلا يحول بينها وبين رؤية الحق سترٌ ولا حجاب، فيرى الناس جميعاً الحقائق ظاهرة جليَّة بادية للعيان.. ويشهد الناس جميعاً الحق الذي جاءت به الرسل، فهذا المؤمن الذي تدارك أمره من قبل أن يأتيه الموت، وفاز بليلة القدر أشبه برجل يسير ليلاً في المغاور والقفار وبيده سراج ساطع منير، فهو أبداً على بصيرة وهدىً يسير في النور، والنور يكشف له كل شيء، فهو يسير في طمأنينة وسلام مدى العمر وطول الحياة، يتقلب دوماً في الخير، ولا يعمل إلا الخير، فإذا انتهت به مرحلة الحياة وطلع الفجر، جاءه الموت وهو بخير حال.. وهنالك البشرى والفرح والغبطة بما قدَّم من أعمال.

فإن شئت العلم والمعرفة، وإذا كنت ممن يطلب الكمال والفضيلة، وإذا أردت أن ينطبع الحقُّ في قلبك، وتصطبغ نفسك بصبغة من الله ومَنْ أحسن من الله صبغة. وإن أحببت أن

---

[116] قال الإمام النووي حديث حسن صحيح.

[117] أخرجه البخاري، الاتحاف، للزبيدي (ج3، ص165).

[118] إحياء علوم الدين (ج5، ص164).

يتحلَّى قلبك بنور تمشي به في الظلمات، يكون لك به من الله برهان وفرقان، فما عليك إلاَّ أن تسعى لتفوز بليلة القدر، وهنالك تكسب حياتك الثمينة الغالية وتكسب هذا العمر. قال تعالى: **{وَمَنْ كَانَ فِي هذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبيلاً}**[119].

{وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[120].

---

[119] سورة الإسراء:72.

[120] سورة العنكبوت:6.

ماذا إذا صام الإنسان ولم يحصل على التقوى وليلة القدر في شهر رمضان؟

ولعلك تقول: إذا أنا صمت رمضان ولم تحصل لي التقوى التي شُرع الصوم من أجلها هل أنا بمعدود من الخاسرين؟ وهل يعني أني لست بمستفيد شيئاً من الصيام الذي صمته؟ وهل تذهب أعمالي وصلاتي كلها أدراج الرياح؟ وفي جوابي عن هذا السؤال محذراً أناساً ومطمئناً آخرين أقول:

أنت أعلم بما في نفسك فبحسب ما أنت فيه من حال يهبُكَ ويتفضل عليك ربك ومولاك.

فإذا كنت ممن ألقى حبله على غاربه واستهتر بأوامر ربه فأطلق البصر في المحرمات، وأرخى العنان لنفسه تسرح خلال العام في المنكرات ثم جاء يصوم رمضان فما هو بمستفيد من الصيام ولو أنه صام الدهر كله ويشير إلى ذلك رسول الله ﷺ بقوله الكريم: **«من لَمْ يدعْ قولَ الزور والعملَ به فليسَ لله حاجةٌ في أن يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»**[121].

يريد بذلك ﷺ أن الصوم الذي لا تسبقه استقامة في العمل وانقطاع عن المنكرات لا يثمر لصاحبه شيئاً ولا يصل به إلى التقوى تلك الغاية السامية التي شُرع الصيام من أجلها.

وأما إذا كنت قد أعددت نفسك خلال العام ونقلتها من مرتبة الاعتقاد إلى مرتبة الإيمان بلا إلّه إلا الله ودخلت في ذلك الحصن المنيع الذي يحفظك من الوقوع في المعاصي وأقبلت على الله تعالى في صلاتك الإقبال الذي يحلِّي نفسك بحلية الكمال ويطهِّرها مما بها من ذنوب وأدران، وجاء شهر الصيام فأبشر بكل خير وتوقَّع إحسان ربك إليك وأنه لابدَّ لك من الوصول إلى التقوى ولو طال بك المسير وأنت باستقامتك وصلاتك في كل يوم أقرب إلى الله من سابقه، وفي كل عام أرقى وأرفع من سالفه حتى إذا ما أضحت نفسك أهلاً لتلك المنحة الكبرى وذلك العطاء الإلّهي العظيم كساها الله تعالى بحلية التقوى وتفضَّل عليها بها.

---

[121] الجامع الصغير (حم خ د ت ه)

كيف يجب أن نصوم لنفوز بليلة القدر؟

إذا صام المؤمن حقيقة فلم يؤذِ أحداً ولم يكسب إثماً ولم يعص الله في نهاره أبداً.. إذا صام المؤمن وفعل الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً قاد نفسه إلى ربه، ووجَّهها إلى خالقه وطلب معرفة الله طلباً حثيثاً. إذا صام المؤمن رمضان وتناول من الطعام عند الإفطار قدراً يسيراً ولم يُحمل معدته حملاً ثقيلاً إذا فعل الصائم هذا، وأتى بما ذكرنا، ووقف يناجي ربّه، يصلي صلاة التراويح ويقف خفيفاً نشيطاً، لا يشكو ألماً ولا يطلب شيئاً وكان إلى ربه راغباً. هنالك وفي ليلة من ليالي رمضان لابدّ من ساعة يكرمه الله بما يكرم عباده المحسنين. لا بدَّ لهذه النفس الطاهرة الزكية من ليلة تُزجُّ فيها بالأنوار الإلّهية وتُغمس في بحور من المعارف الربانية فيصبح لها فرقان ونور ختامه بصيرة تشهد بها حقائق الأمور، وتتَّقي بها الوقوع في المآثم والشرور فترى الخير وتشهده في كل أمرٍ من الأمور الإلّهية ويبدو لها الشر وتعاينه في كل مخالفة ومعصية. قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ..}**[122].

[122] سورة الحديد:28.

الحج

خامس المدارس االعليا للتقوى

مقدمة

الحمد لله مانع رسله؛ جاعلهم أئمةً يهدون بالخيرات بأمره، ربُّ العالمين صاحب الإحسان والخير العميم في تسييره الكامل لكافة عباده، بل ولكافة خلْقه بأوامره المبصرة.

ما أراد أرحم الراحمين لعباده مفارقة الأهل والخلان في فرضه الحج إلى وادٍ لا ماء فيه ولا شجر بأعماق الصحاري والهضاب ومواجهة الصعاب إلاَّ ليدخلوا جنَّات النعيم فيغدون عالمين وبه تعالى عارفين.

طلاَّب الدنيا يهجرون أوطانهم ويقاسون آلام الفرقة وشظف العيش، عيش الغربة والكربة ليحصلوا على شهاداتِ متاعٍ زائلٍ منقضٍ وما فرضها عليهم أحد إلاَّ حبُّهم بالتفوُّق وتأمين المعاش والقيم الاجتماعية.

جعل الله الكعبة بعيدة عن زينة الدنيا فهي أقرب للوجهة للآخرة وإليه جلَّ عُلاه، وما هذه القلائد والمناسك والأركان إلاَّ تعبير عن حقائق سامية لا يفقهها المنغمس بأوحال الدنيا، الغارق بدنيء شهواتها، ناسياً من إليه مرجعه ومآله جلَّ جلالُه.

رُبَّ قائل مستغرب مستعجب ما ولَّى هؤلاء الملايين تلك القبلة من الحجر في صحارٍ نائية!

ما الحجُّ ولِمَ يهدف!

ما هذه الملابس، بل لا ملابس يرتدونها؟

ما هذا الطواف والدوَران حول بيتٍ مبني من الحجارة السوداء ذي الشكل المكعب؟ تارةً يمشون وتارةً يركضون، فلِمَ؟

ثم يصلون لأحد أركانه المركوز فيها ذلك الحجر الأسود فيقبِّلوه ويبكون، وبالدعاء يجأرون؟! يكرِّرون ذلك مراراً في كل شوطٍ من دَورانهم، فلِمَ ذلك يفعلون؟

ومن ثمَّ بين الصفا والمروة يركضون ذهاباً وإياباً تارةً يرملون وأخرى يمشون فيرملون، فلماذا؟ أشبال ونساء ورجال وعاجزون، من الموت قريبون؟

عجباً تراهم جمعاً ينفرون ليلتقوا في عَرَفَهْ، وما أدراك ما عَرَفَهْ: جُبيلٌ صغير حوله وعليه يلتفُّون بعد مسير نهارٍ من مكة، وعند هذا الجُبيل يجلسون ويصرخون! ومن لا يفعل فعلهم في يومهم هذا من مكانهم هذا فلن ولمْ يَكْمُلْ حجُّهُ أبداً ولا يُقبل منه ما فعله، هكذا يقولون.

آلاف الآلاف من الكتل البشرية بعدها يهرعون لرمي الحصى على أصرحةٍ من الحجارة بزعمهم أنها إبليس وأعوانه هناك مقيدون!

ثم للعجب أنهاراً من الدماء يُسيلون في ذبائحَ وبدونها لا حجَّ لهم ولا اعتمار، بل ولا يُقبل بديلها بمالٍ ولا فداء!

ثم يرجعون لبيت الحجر بمسجد مكة يتشبثون بأستاره، ويقبِّلون وكأنهم مع أعزِّ الأحباب يلتقون!

ومن ثم يرحلون باكين وللحجارة مودِّعين! وعنهم تسمع العجب العُجاب فلا يقلِّمون ظفراً ولا يأتون غُسلاً ولا يتسامرون بحديثٍ ولا.. ولا الكثير يفعلون.

فيتَّهمنا الغرب بأننا نحن الملايين نسير خلف الملايين كهريع قطيعٍ يجمحون، أم هل على سيْر آبائهم مقلِّدون؟!

تسألهم ما الحكمة والهدف والغاية مما به تقومون؟ تراهم لا يدرون ولا يعلمون، بل لا مُجيب إلاَّ قولهم: فرائض محدودة بأيامٍ معدودة لأماكن مخصوصة، هكذا قال آباؤهم فهم على آثارهم يهرعون، بل مجرَّد ردِّهم "أمر تعبُّدي"، بلا حكمةٍ ولا سبب هكذا قالوا أننا بذلك مأمورون، ولذلك دون تفهُّمٍ ملتزمون، فاسكت والتزم ولا تعترض فتنطرد، فلا يجوز التدخُّل بذاك المقام الذي قام به آباؤنا ونحن لهم مقلِّدون.

ربَّاه إلى متى ونحن تائهون وبالضياع سائحون...

كلاَّ.. لقد دار الزمان دورته وحُقَّ للنور بالظهور، فأشرقت شمس المعارف الكبرى تتهادى بالنور والجلال والحق والكمال فكشف الإسلامَ وسموِّه وآن لمقلِّدة العلماء بالانمحاء وللضلال بالزوال ووقعت الصاعقة الكبرى على رؤوس الجهلة الأغبياء بظهور الحكمة والضياء على لسان علاَّمتنا العربي محمد أمين شيخو (قدَّس الله سرَّه) ببيانٍ علمي أنار القلوب بنور المعرفة والفكر، والعلوم والإيضاح فبيَّن بما يقطع الجهل ويُزيل الجهالة والعمى، حقائقَ إشراقية شَفَتِ القلوبَ وفتَّحت الأذهان والعقولَ عن عظمةِ مناسك الحج وينابيعها العلوية ممَّن استناروا، وأنار بوحي محمد ﷺ خير الأنام.

فهاكم حقائق إبداعية لدررٍ عليَّةٍ غنيَّةٍ تطيب لها القلوب وتُغني الأفكار بالحِكَمِ الإلٓهية السنيّة وباهر النتائج لأركان الحج الحقيقي والذي جعل من الجاهلية أنواراً تفجَّرت فأنارت العالَمين وجعلت من العمي الجاهليين صحابةً كراماً أناروا الوجود بما نالوه بالحجِّ من فوائد لا تزول. فغدوا بالإيمان، فالحج جبالٌ راسيات، رسَّخوا جذوراً عميقة في الجنَّات الخالدات ولسان حالهم يقول: الموتُ غداً تحفتنا، والرسولُ زعيم دعوتنا، قائداً يشقُّ طريقنا في كلِّ وقتٍ وحين، ونحن تحت لوائه مستشفعين بأنوار الإلٓه العظيم.

تعال بنا أخي لنسير بهذه "الدرر" إلى صراطٍ مستقيم، لا تنكُّبَ عنه، لنسعد بحياةٍ مداها لا نهاية له، ولنكسب فرصة حياةٍ لم تكن حياتنا الدنيوية قبلها شيئاً مذكوراً تجاهها.

فطوبى لمن بدررِ الحجِّ استنار، طوبى له وحسن مآب.

فغداً لا ينفع الندم ولات حين مندم.. فيا خسارة المعرضين.

تقديم المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

الحج خامس المدارس العليا للتقوى

أما وقد تكلَّمنا في الأجزاء السابقة عن الإيمان والصلاة والزكاة والصيام، فلننتقل إلى آخر كلمة من حديث بني الإسلام على خمس وأعني بها قوله ﷺ: **«وحجُّ البيت من استطاع إليه سبيلاً»**.

الغاية من الحج

إن الغاية من الحج كالغاية من رمضان ألا وهي نيل المؤمن التقوى، قال تعالى مبيّناً غاية الصيام: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون}**[123].

فمن المؤمنين من يحصل عليها في رمضان ويزيدها في الحج لأن التقوى كالإيمان بازدياد مستمر وقد تجد الفرق شاسعاً بين مؤمن ومؤمن وبين تقي وتقي. قال تعالى: **{وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى}**[124].

وهذه الآية تبيِّن أن هنالك مؤمن تقي وآخر أتقى.

ومنهم من لا يحصل عليها في رمضان فيكون الحج مرحلة مكمِّلة لمن فاتته التقوى في رمضان، ومن لم ينل التقوى من صوم رمضان أو الحج فلا حقَّق الغاية لأنه لم يجدّ ويجتهد في كلتا المدرستين.

لقد بيَّن تعالى الغاية من الحج فقال: **{اَلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ}**[125].

{وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّل فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا الله وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}[126] ونفهم من هذه الآية الكريمة بأن الذي حصل على شهادة التقوى فلا إثم عليه إن تعجَّل أو تأخر في أيام التشريق عند رمي الجمار طالما أنه نال الغاية التي من أجلها ذهب.

---

[123] سورة البقرة:183.

[124] سورة الليل:17.

[125] سورة البقرة:197.

[126] سورة البقرة:203.

وصف الحج

إن بيت الله الحرام وضِعَ كما أخبرنا تعالى بوادٍ غير ذي زرع، وفي مكان تحيط به الصحراء من جميع جهاته، ويضطر الحاج إلى قطع مسافات طويلة وسط صحراء تكاد تكون مقفرة من السكان إلا من بضع واحات متوضّعة هنا وهناك، يتزوَّد منها الحاج حاجته لتساعده على متابعة السفر.

وفي بضعة أيام يتخلَّص الحاج من العمران ليستقبل الصحراء وجهاً لوجه فالدنيا خلَّفها وراء ظهره ولم يبق أمامه ما يشغل نفسه إلا الذي هو قاصده.

إن الحاج الآن في طريق مقفرة، وكل شيء فيه يكاد يكون ساكناً إلاَّ من فحيح الأفاعي وصرير الجنادب، وعواء الأوابد، وتعْصف بين الحين والحين ظلل من الرمال تحبس الرؤيا وتكاد تسد مجاري التنفس والقافلة تسير بهدوء "إلا من ذكر الله" تستقبل نهاراً وتودِّع ليلاً وتودِّع ليلاً لتستقبل نهاراً.

إنها ذكريات تتناسب والغاية التي شدت إليها الرحال، وإنها ذكرى ليوم لا ريب فيه سوف تفارق فيه الحياة الدنيا، وتفارق الأهل والأحباب. كذلك فإن مناظر الحيّات والعقارب، وسماع أصواتها تذكّر الحاج بالقبر، وما يلقى فيه من أمثال تلك المخلوقات، تلك المشاهدات سوف تترك في النفس إحساساً بعدم دوام الحياة وأن لابدَّ من يومٍ ينادي فيه المنادي ألا أيها الإنسان تهيأ للرحيل، فالأوان قد آن لمفارقة الأهل والمال والخلاَّن، هذا الإحساس يدفع الحاج لكي يشمر عن ساعد الجد ويسعى في طلب الحق.

والحقيقة كل الحقيقة فإن قلائد الحج لكي تزهد بالدنيا وما فيها من شهوات وتلقي بها من قلبك، فالقلائد هذه العمرة تُقلِّد بأعمالها حال الموت حافياً مكشوف الرأس لا تقلِّم ظفراً ولا تأتي غسلاً ولا تقتل حشرة بثياب الإحرام غير المخيطة تماماً عندها ترى النفس ذنوبها وعيوبها وتغدو نفسك مطواعاً لك في إقبالك فتتذلَّل لله وتقبِّل الحجر الأسود رامياً نفسك على أعتاب الله تائباً، عندها يقبلك.

من هذا الوصف تبدو لنا الغاية سافرة من وضع البيت الحرام في مكان بعيد، وفي وادٍ غير ذي زرع، خالياً من كل ما يشغل النفس من مفاتن الدنيا وزخرفها، لأن أعظم عقبة تحول بين الإنسان وربه، هي حب الدنيا وانشغاله بها عن الآخرة، فهي التي تسد السمع وتطمس على البصر وتجعل القلب غافلاً عن ذكر الله.. وهذه هي الحكمة من وضع البيت الحرام في جوف الصحراء وفي وادٍ غير ذي زرع.

والآن وبعد بيان الغاية من الحج ووصف الحج لِنُجِبْ من قال مادام المرء قد وصل في صيام رمضان إلى التقوى وما دامت نفسه قد أضحت في حال ترى معه الخير خيراً والشر شراً فإذا هي مستنيرة بنور ربها دوماً فماذا يفيد الإنسان من الحج وركوب البحار ومفارقة الأهل والعيال والتعرُّض للمخاطر والأمراض، وتحمُّل المتاعب والمشاق؟ أليس هذا الخالق الرؤوف الرحيم الذي خلق هذا الإنسان وأنعم عليه بما أنعم من الخيرات بقادر على أن يمنحه ما يريد أن يمنحه إياه وهو مقيم في بلده دون أن يفرض عليه الذهاب إلى البيت الحرام حيث تقع مكة في وادٍ غير ذي زرع لا حدائق فيه ولا أشجار ولا ينابيع ولا أنهار خَلا قليل من الماء قد يكفي الحجيج أو يكاد! وإذا نحن سلَّمنا بأن الحج فرض على القريب ذي البلد المجاور للبيت الحرام فهل هو مفروض على ذي البلد النائي الذي يضطره الوصول إلى أرض الحجاز أن يقضي السنون والأعوام مشياً على الأقدام في ذهاب وإياب؟

وإذا كان هذا الخالق العظيم قد خلق الإنسان وأتقن صنعه وأبدع الكون كله على أبدع نظام وكان كل ما في الكون يشهد بعظمته ويدل على جلاله وكبير قدرته، فلماذا أمر الإنسان في الحج بأوامر قد

يقول قائل إنها شكليات ومجرد أعمال؟ أوليست عظمة العظيم تقتضي أن تكون أوامره كلها عظيمة ومستندة إلى حكمة عالية ونتائج سامية ويسوق على سؤاله هذا بعض الأشياء فيقول: لماذا أمرنا تعالى في الحج بخلع الثياب من المخيط والإحرام بلباس من إزار ورداء؟ ولماذا أمرنا بالسعي بين الصفا والمروة والتطوُّف بهما؟ وما هو المراد من الطواف بالكعبة وتقبيل الحجر الأسود؟ وما الغاية من الوقوف بعرفة والتلبية بقولنا لبيك اللهم لبيك؟ أوليس الله تعالى معنا أينما كنَّا وفي أي جهة حللنا فلماذا نصعد إلى الجبال ننادي بالتلبية ونركب هاتيك المشاق؟ ثم ما هي الغاية من رمي الجمار وهل يقف الشيطان مسلسلاً حتى نرجمه بسبع حصيات في ثلاثة مواقع، وفي أي جهة هو موجود يا ترى من هذه الجهات الثلاث؟ وهل يتأثَّر الشيطان برمي الجمار عليه، أم تراه يحترق بذكر الله والإقبال عليه؟ وأخيراً لماذا نذبح الأضاحي ونريق دماء آلاف وعشرات الآلاف من الأغنام وقد لا يؤكل منها إلا عدد قليل؟ أوليس الأفضل أن نتصدَّق بهذه الأموال على الفقراء بدلاً من إراقة هذه الدماء! وهكذا فإنك تسأل وتسأل وتظل عمرك كله تسأل وما يشفي غليلك من السؤال إلا إذا أنت طبقت حديث رسول الله ﷺ في قوله: «**بني الإسلام على خمس..**» فإذا أنت طبَّقت هذا الحديث الشريف حق التطبيق وفق ما كنا أشرنا إليه وبيَّناه ثم أقبل رمضان فصمت فيه ذلك الصيام الذي تكلَّمنا عنه حتى حصلت لك التقوى وصارت نفسك ممن يدرك الخير خيراً والشر شراً ويعرف النافع من الضار وأصبحت ممن لا تحدثه نفسه بمعصية لأنه رأى أن المعصية واقتراف الآثام إلقاء بالنفس في الشرور والهلاك وأن الطاعة وتطبيق الأوامر الإلٓهية سعادة وروح وحياة.

أقول إذا أنت طبَّقت هذا الحديث الشريف حقَّ التطبيق وبدأت السير بانياً أعمالك كلها على الإيمان متنقِّلاً من صف إلى صف في هذه الجامعة العليا متنقِّلاً من حال إلى حال حتى انتهى بك المطاف وأوصلك المسير إلى رمضان فصمته حقاً وشهدت من جلال الله وكماله وخالط قلبك من حبه وعشقِه ما أكسبك نوراً وحلاَّك بحلية التقوى فأنت حينئذ أهل لأن ترقى إلى هذا الصف النهائي وأعني به الحج.

وبالحج وحده تظهر لك البراهين والأدلة.. وبالحج تنفتح أمام عينيك الحقائق سافرة ظاهرة.. وبالحج ترى تفصيلات الأمور التي شهدتها في نفسك في رمضان مجملة وتشاهد دقائقها بصورة جلية حسب طلبك وصدقك في الطلب. فإذا أنت لا يحول بينك وبينها حجاب أو غشاوة.

بالحج ترى وترى فلا تعود تسأل ولا تعود محتاجاً لأن تسأل أي إنسان لأنك غدوت بصيراً مشاهداً وليس يحتاج البصير إلى دليل وإن كان لا يستغني عن الصاحب والرفيق والسيد الشفيع.. بالحج ترى مناسك الحج كلها وتشاهد أنها إنما بنيت على حكم عالية وأن أوامر الإلٓه العظيم كلّها عظيمة وأن جميع أعمال الحج إنما هي رموز ووسائل تصل بهذه النفس البشرية إلى أسمى منازل الإنسانية الحقّة.. بالحج تنحل أمام أعين نفسك جميع تلك الأسئلة التي سألتها وتتهافت أمامها جميع المشكلات فترى السبب من الأمر بالحج وسبب الأمر الإلٓهي بهذه المناسك والأعمال.. وبالحج لا ترى مناسك الحج فحسب بل جميع ما تتطلَّبه نفسك من أمور وما يعرض لها من أسئلة وما يدور في خلدها من مشكلات.

وهكذا فبالحج تغدو أهلاً لرؤية الأسباب من الأوامر الإلٓهية والمنهيات لأنك قد رأيت مُفصَّلاً ما في هذه الأوامر والمنهيات فأضحت لديك الحجج الدامغة والبراهين القاطعة البيّنة وغدوت عالماً حكيماً وبذلك شهد رسول الله ﷺ لأصحابه الكرام إذ يقول: «**أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم**»[127].

[127] (رواه البيهقي، وأسنده الديلمي عن ابن عباس بلفظ: "أصحابي بمنزلة النجوم في السماء بأيهم اقتديتم اهتديتم").

وهكذا فما أمر الله تعالى الإنسان بالذهاب إلى أرض الحجاز وأداء فريضة الحج إلا ليسمو بهذا المؤمن الذي استنارت نفسه في رمضان بنورٍ منه تعالى إلى أعلى مرتبة يجب أن يصل إليها الإنسان. وإذا كنّا نشبّه وضع المؤمن الذي وصلت نفسه في رمضان إلى التقوى بامرئٍ حصل على شهادة جامعية، فمثل هذا المؤمن الذي يذهب إلى الحج ويصل إلى الثمرة المطلوبة منه كمثل من ينال ما يسمُّونه في عصرنا شهادة الدكتوراه ليغدو أستاذاً في تلك الجامعة. ومن هنا نستطيع أن نميّز حالين أو مرتبتين متتاليتين من مراتب التقوى.

التقوى التي يصل إليها الحاج في حجه حيث ينكشف له ما في الأوامر الإلّهية من أسرار دقيقة وما بها من فوائد مستكنّة وما تنطوي عليه من سعادة لهذا الإنسان ومجتمع الإنسان كافة، كما ينكشف له ما في المحرَّمات من مضار ومضار يضيق الإحصاء والعدُّ عن حصرها والإحاطة بها. ولهذا المؤمن السامي بعد ذلك وله في كل يوم وله في كل مناسبة مشاهدة ومعرفة جديدة وهكذا إلى ما لا نهاية له. قال تعالى: **{قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً}**[128].

وإذن فما أمر الله تعالى المؤمنين بالحج إلا ليغدو المصدِّقُ مشاهداً، والمؤمن التقي عالماً حكيماً والإنسان إنساناً حقاً وإلى ذلك أشارت الآيات الكريمة في قوله تعالى: **{..فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمشْعَرِ الحَرَامِ وَاذْكُرُوه كَمَا هَداكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالّينَ، ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ واسْتَغْفِرُوا الله إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}**[129].

وأنت ترى من خلال ما بيَّناه وعلى ضوء هذه الآيات الكريمة ما في الحج من عناية إلّهية بهذا الإنسان وما فيه من حكمة عالية. وأن الله تعالى لم يقسُ على هذا الإنسان بما أمره به من مفارقة الأهل والأوطان وركوب المشاق وبذل الأموال حتى يؤدي فريضة الحج. بل إنما أراد أن يعدَّه لحياة أفضل وسعادة أبدية ويسمو به إلى المنزلة التي خُلِقَ وأُخرِجَ إلى هذه الحياة الدنيا من أجلها، ليسعى إليها وينالها فيفوز فيما بعد إذا هو وصل إليها بنعيم مقيم وسعادة خالدة. ويتوضَّح لك الأمر ويظهر بجلاء وتستطيع أن تدرك طرفاً من عناية الله تعالى بهذا الإنسان فيما فرضه عليه من الحج إذا أنت أخذت على وجه المثال ما يفعله بعض الآباء في عصرنا الحاضر فتجد الواحد منهم يرسل ابنه إلى أبعد الآفاق ويحثه على السفر إلى أقصى البلاد ويدفع له الكثير من المال غير مبال، ويُعرِّضه لأقسى الظروف وأصعب المناسبات ليدرس ويتخصَّص في الجامعات ويعود بعد سنين فينال وظيفة كبرى أو يضطلع بعمل هام يجعله في وضع اجتماعي رفيع أرفع مما هو فيه من قبل، وترى القريب والبعيد يكْبرون هذا الأب ويجدون فيه العناية الأبوية التامة ويرون حرصه على مستقبل ولده مع أن كل ما بذله هذا الوالد من مال وكل ما جشَّمه ولده من صعوبات إن هو إلا من أجل حياة دنيا وأيام معدودات قد لا تدوم قليلاً ولا كثيراً. أفتجد بعد هذا المثال وبعد أن وضَّحنا لك ذلك بما قدَّمناه لتدرك عناية الله تعالى وواسع فضله وسابغ رحمته بهذا الإنسان؟ وبعد هذا هل يستطيع أحد أن يعد فريضة الحج تكليفاً صعباً أو أن يراها أمراً تعبُّدياً والله أعلم بمراده منها؟ أوليس التدقيق في الآية الكريمة التي أوردناها آنفاً بمبين لنا سبب هذه الفريضة وحكمتها إذ يقول تعالى: **{..وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُم..}**[130].

---

[128] سورة الكهف:109.

[129] سورة البقرة:198-202.

[130] سورة البقرة:198.

وإذن فما أمرنا تعالى بالحج إلاَّ لذلك الهدف العالي والغاية السامية **{..فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى}**[131]، وكل ما فيه من مناسك وأعمال إن هي إلا وسائل وشرائط بدونها لا تتحقق الغاية من الحج، ولا يبلغ الحاج ذلك الهدف الأسمى. ونسوق على وجه المثال طرفاً من هذه الأعمال ونكون بذلك قد أجبنا على بعض الأسئلة التي عرضناها في مطلع كلامنا عن الحج فنقول:

---

[131] سورة طه:123.

الإحرام

من مناسك الحج المعدودة فَرْضاً الإحرام، والإحرام هو نزع الملابس المخيطة واستبدالها بإزار ورداء مقروناً ذلك بنية الحج. وتكون مباشرةُ ذلك والقيام به من أماكن مخصوصة فإذا بلغ القادم من الشام مثلاً أرضاً معينة اسمها رابغ نزع ملابسه هناك واغتسل ثم أحرم للحج. وكذلك القادم من اليمن له مكان خاص به وكل قادم يُحرمُ من ميقاته حتى إذا ما أشرفوا جميعاً على مكة كانوا بزيّ واحد وملابس واحدة لا فرق فيها بين ملك وأمير وبين امرئٍ فقير مغمور ليس له ذلك المنصب الدنيوي الكبير. هنالك يتساوى الرئيس مع مرؤوسه والخادم مع سيّده والوالد مع ولده والتابع مع متبوعه وتسودهم جميعاً روحٌ من المساواة.

يخلع الملك التاجَ عن رأسه فإذا هو حاسر الرأس خِلْوٌ من تلك الملابس التي أفاضها عليه منصبه وإذا هو الآن ليس بملك ولا أمير بل إنما هو عبدٌ من العباد وفرد من الأفراد. هنالك يتخلى ذووا المناصب عن مناصبهم وأصحاب المكانات عن مكاناتهم وأولوا السلطات عن سلطاتهم وقد وقفوا سواسية مع رعاياهم ومنادي الحضرة الإلٓهية يناديهم: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}**[132].

وهكذا فلا يميّز فرداً عن فرد عند الله إلاَّ إقباله على الله وتقواه فمن كان أتقى كان إلى الله أقرب وعند الله أحظى من سواه. هذه الروح من المساواة إنما يمليها على الحاج ذلك المنسك من الإحرام. إنه إشعار يشعر النفس بخلع الدنيا ومناصبها والتخلي عن زينتها وبهرجها. وإلى جانب ذلك كله حينما يرى الإنسان نفسه وقد لبس البياض وتلفَّف بالإزار والرداء وأضحى حاسر الرأس مكشوفه تراه يذكر ساعة الموت تلك الساعة الرهيبة التي سيفارق فيها الدنيا فيجرَّد من الثياب ويغسّل ويكفّن بالبياض وهنالك وما أعظم ما في الموت من موعظة وذكرى تجدُ هذا الحاج قد زهد في الدنيا زهداً كلياً ولم يبقَ له إلا أن يقبل على الله بوجهه فيتزوَّد من دنياه لآخرته. ويسير الركب إلى أرض الحرم وتعجُّ هذه الأرض المقدسة بعشرات الآلاف من بني الإنسان جمعتهم على تنائي ديارهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم دعوة الله وكلمته فإذا بعضهم يموج في بعض وإذا هم بياضٌ في بياض وكأنهم قد وقفوا بين يدي الله للحساب والسؤال والجواب في يوم المعاد. هنالك يذكر هذا الحاج ذكرى ثالثة ويعلم أنه سيقف في مثل هذا الموقف في يوم مجموع له الناس وأن الله سبحانه وتعالى هو الحكم العدل وكل امرئ بما كسب رهين. وهنا يتحفَّز هذا الإنسان وقد أصبح هذا حاله إلى العمل المجدي ويُشيح عن الدنيا بوجهه ويلتفت إلى الله تعالى بكليّته ليؤدي مناسك وأعمالاً إذا هو أدَّاها حقَّ التأدية فقد ظفر بالثمرة المطلوبة من الحج وفاز فوزاً عظيماً.

هذه ناحية من النواحي وذلك شيء يسير من كلمة الإحرام وخلع الثياب وفي الإحرام خير كثير وهو شرط أساسي وركن من أركان الحج التي إن لم يؤدِّها الحاج فلا حجّ له.

فهل نستطيع بعد أن تكلَّمنا بما تكلَّمنا عنه أن نقول إن مناسك الحج عبارة عن أمور شكلية وأعمال تعبُّدية لا يُدْرَكُ معناها؟ أليس الإحرام سلسلة من ذكريات تتذكَّر معها النفس أحوالها متنقِّلة متدرِّجة من حال إلى آخر حتى تخلع معها الدنيا بالكليّة وتتخلى عنها وتقبل على الله بوجهها. وهل يذكِّر النفسَ مذكِّر ويعظها واعظ كالموت وأحواله وكفى بالموت واعظاً.

أليس للنفس قوانينٌ وأنظمة لإقبالها على الله تعالى والوجهة إليه؟ ومن أدرى بقوانين النفس وأنظمتها ممن برأها وأوجدها؟ أفلا يجب على الإنسان أن يطيع خالقه ويأتمر بأمره ويعلم أن جميع ما شرعه

---

[132] سورة الحجرات:13.

له إن هو إلا أصول وقوانين سنَّها سبحانه لهذه النفس البشرية حتى ترقى من حال إلى حالٍ وتصل إلى ما أعدت إليه وخُلِقت له من أسمى مراتب الإنسانية والكمال؟

وننتقل الآن إلى الطواف بالكعبة..

الطواف

أول ما يفعله المحرم إذا دخل مكة الطواف بالكعبة سبعة أشواط فقد رُوي أن رسول الله ﷺ حين قَدِمَ مكة أول ما بدأ به أن توضأ ثم طاف بالبيت. ويبدأ الحاج الطواف من الحجر الأسود فيستقبله ويرفع يديه مكبراً كما يرفعهما في الصلاة ثم يستلم الحجر فيقبّله. وبعد ذلك يطوف جاعلاً البيت عن يساره ماشياً رَمَلاً في الأشواط الثلاثة الأولى مضطبعاً بردائه. فإذا أنهى الشوط الأول عاد فالتزم الحجر مقبّلاً فإن لم يستطع أشار إليه بكفَّيه وقبّلهما. وهكذا حتى يتم السبعة أشواط فما المراد يا ترى من الطواف بالكعبة؟ وما المقصود من المشي رملاً والاضطباع بالرداء؟ وما الغاية من تقبيل الحجر الأسود ما دامت الكعبة بيتاً مبنياً من حجارة عادية كما تبنى به سائر البيوت وما دام الحجر الأسود جزءاً من هذه الأرض وحجراً من أحجارها. وهل حقيقة الطواف أن يطوف الحاج بهذا البيت المبني من الحجارة؟ وهل المراد من تقبيل الحجر الأسود تقبيل هذا الجماد أم هناك سرٌّ خفيٌ ومعنى دقيق إذا لم يفقهه الحاج فقد خسر في حجّه خسراناً مبيناً ورسول الله ﷺ يقول: «**من يُرِدِ اللهُ بِهِ خيراً يُفَقِّهْهُ في الدِّين**»[133].

وفي الجواب عن هذا السؤال نقول: ليس المراد من الطواف بالكعبة أن تطوف بهذه الحجارة، وليس المراد من الطواف بالبيت البيت ذاته إنما المراد أن يطوف جسدك به من ظاهره لتستطيع نفسك أن تسري إلى داخله فتجتمع بتلك النفس الزكية الطاهرة المقبلة منه على الله وأعني بها نفس الرسول ﷺ. فإذا ما طاف جسدك بظاهر الكعبة واستطاعت نفسك أن تخترق الحجارة والبناء وتسري إلى داخله وإذا ما اجتمعت نفسك بنفس رسول الله وعرجت بمعيتها وبصحبتها إلى الله، وصرت ترى نفسك وأنت تتطوَّف بالبيت بين يدي ربّ البيت فقد صحَّ طوافك وحصل لك المطلوب من النسك ولك أن تتمثل بقول من قال:

وما حبُّ الديار شغفن قلبي   ولكن حبُّ من سكن الديارا

أما إذا أنت نظرت إلى الصور ورأيت البيت وما سَرَتْ نفسُكَ إلى داخله ولم تحصل لك الصلة برب البيت فحاسب نفسك بنفسك ولا تقولنّ ما لاقيت في طوافي إلا تعباً وما وجدت إلا زحاماً وما جنيت من ثمره بل اعلمْ أنك أنت المقصِّر المفرط من قبل. واعرف بأن لنفسك في سيرها إلى الله تعالى وإقبالها عليه كما ذكرنا من قبل أصولاً وقوانين وإنك لم تراعِ هذه الأصول والقوانين. ولا تبكينَّ عينك أسفاً فالبكاء لا يجديك نفعاً.

وإذا شئت لنفسك حجاً صحيحاً فأعدَّها من قبل ذهابك الإعداد اللائق بذلك اللقاء وقدّم لنفسك بسلوك طريق الإيمان والتحلّي بحلية التقوى فإذا أنت فعلت وتأهبت ثم شددت الرحال ظاعناً إلى تلك الديار فهنالك تنزل ضيفاً على ربٍّ كريم يَهَبُ الجزيل على القليل ويجزي الصادقين بصدقهم ولا يضيع أجر المحسنين.

وهكذا فليس يحج البيت حقاً وليس يطوف حقاً وليس يصل إلى الثمرة المطلوبة من الحج إلا من كانت له سابقة إيمان وتقوى ومن لم يكن من قبل مؤمناً تقيّاً ومن لم يجاهد في سبيل الله حق الجهاد فلا يطمعنّ بما يطمع به من عظيم منزلة وكبير شأن عند الله ولا يظنَّن إن ذهب إلى الحج أنه سيعود بأرقى حالاً مما ذهب فلكل حالٍ تريده طريق يجب أن تتبعها وسُنّة يجب أن تسلكها ولكلّ درجات مما عملوا ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا.

[133] (الجامع الصغير: /9103/ (حم ق)، (حم ت) عن ابن عباس (ه) عن أبي هريرة).

استقبال الحجر الأسود

وفي الحجر الأسود أقوال وروايات مختلفات لا يعرف الصحيح منها إلا من نوَّر الله قلبه بنور الإيمان وحلاّه بحلية التقوى فأدرك ما في الأوامر الإلّهية من الخير وميَّز بين الغث والسمين.

وبعد أن تكلَّمنا عن الطواف والغاية العالية منه فلنذكر لك نزراً يسيراً من كثير عن الحجر الأسود وسبب استقباله والغاية من التزامه ولنبدد في ذلك أقوالاً لا تستند في أصلها إلى شيء من حقيقة ولا تعتمد على علم وفقه فنقول: لا يستطيع أن يطوف الحاج بالبيت، ولا يصل إلى بغيته منه ما لم يستقبل الحجر الأسود ويُقبّله ولو عن بعد. ولكن ماذا يفيد الإنسان من تقبيل الحجر الأسود وما الحجر الأسود كما ذكرنا من قبل إلا جمادٌ وحجرٌ من الأحجار؟

وأما القول الذي يذهب فيه صاحبه إلى أن الحجر الأسود من أحجار الجنة فهو باطل أصلاً.. إنه يريد أن يلصق الأوهام الباطلة بشرعة الإسلام، والإسلام كما رأينا من قبل دين حق ومنطق سليم وعقل، وكل ما جاء به مبني على حقائق ثابتة ومستند إلى قوانين وسنن كونية ومن زعم غير ذلك فهو بعيد عن إدراك حقيقة هذا الدين البعد كله، إذ ما عساه أن يفعل جماد؟ وما عساه أن يجلبه حجرٌ من خير أم ما عساه أن يردَّ من شرٍّ عن الإنسان؟ أهي عودة لعبادة صنم؟!! كلا.

وهكذا فليس يكشف لنا الحقيقة في تقبيل الحجر الأسود إلا الإيمان. وليس يدرك المراد من فعل رسول الله ﷺ إلاَّ تقيٌّ آمن بالله ورسوله فأراه الله سرَّ فعل الرسول وهنالك يعرف المراد ومن يتق الله يشاهد بنوره **{..وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعلِّمُكُمُ الله..}**[134].

لقد أُثِرَ عن الرسول ﷺ أنه استقبل الحجر الأسود قبل بدئه بالطواف والتزمه مُقبّلاً فبكى طويلاً. فَلِمَ قبَّله ﷺ وهو الحكيم الذي لا يفعل فعلاً إلاَّ وكله مبنيٌّ على علم وحكمة، وخير وفائدة؟ ولِمَ بكى ﷺ عند التزامه طويلاً وما يكون له أن يبكي في مثل هذا الموضع إلاَّ لسرٍّ عظيم أدركه من التزامه إيَّاه وتقبيله؟ أليس التزامه الحجر وتقبيله إيَّاه، أليس بكاؤه طويلاً عند التزامه دليلاً على حالٍ نفسي قام في تلك النفس العالية فكان البكاء تعبيراً عن ذلك الحال العالي؟ أليست تلك الدموع التي جالت في عيني رسول الله ﷺ دليلاً على قرب من الله ومناجاة مع الله؟

لقد بيَّن لنا ﷺ المراد من تقبيل الحجر الأسود بقوله: **«الحجرُ يمينُ الله في الأرض يصافح بها عباده»**[135] وفي حديث آخر: **«الحجرُ يمينُ الله تعالى، فمن مَسَحَهُ فَقَدْ بَايَع اللهَ»**[136] فلن يفرِّق الحاجُّ بعدها بين أبيض وأسود إلاَّ بالتقوى ولا يرى جمالاً إلاَّ لأهل القلوب فهو يرى بقلبه الحقائق ولن تغرّه الصوَر والأهواء والمظاهر الدنيوية.

وهكذا فما الحجر الأسود إلاَّ رمز وما تقبيلك إيَّاه إلاَّ إشارة لارتماء هذه النفس على أعتاب الله وتعبيرٌ عن عهد تعاهد عليه الله. تعاهد فيه على الطاعة وانتهاج صراط سوي وسلوك قويم لا تخالطه شائبة، ولا تزعزعه خطوبُ تمييزٍ عنصري.. فإن أنت قبَّلت الحجر الأسود ذلك التقبيل وقام في نفسك وأنت تستلمه أو تشير إليه عن بعد ذلك الحال، وعاهدت ربك ذلك العهد فقد أضحت هذه النفس المعاهدة الراجعة بالتوبة والإنابة إلى الله أهلاً لأن تخترق خلال طوافها البناء والأحجار وتسري إلى داخل البيت فتجتمع بنفس رسول الله ﷺ وتقْبل بمعيّته على الله وبذلك تصل إلى الثمرة المطلوبة من الطواف.

---

[134] سورة البقرة:282.

[135] (الجامع الصغير: /3804/).

[136] (الجامع الصغير).

أما وقد عرفنا المراد من تقبيل الحجر الأسود والتزامه قبل الطواف فمن اليسير علينا أن ندرك المراد من المشي رملاً في الأشواط الثلاث الأولى فنقول:

ما المشي رملاً وهو الهرولة مع تحريك الكتفين كالمبارز يتبختر بين الصفين إلاَّ إعلان يعلن فيه الإنسان خضوعه لحضرة الله وعبوديته وتذلُّله بين يدي هذا الإلّه العظيم والرب الرحيم.

وهذا الطائف يقول بلسان الحال أي ربِ جئتك أسعى مهرولاً متنازلاً عن كل ما كنت أعتزُّ به من منصب ومال متبرئاً من كل ما لصق من قبل بنفسي من إعجاب بالنفس أو فخر واعتزاز، متذللاً بين يديك، معترفاً بعبوديتي إليك، مفتخراً بإقبالي عليك طائراً بجسمي وروحي ونفسي إلى رسولك مَن أمرته باللقاء بي وبالمؤمنين من هذا المكان مكان اللقاء ليعرج ﷺ بنا إليك، لذا أتيت مستعجلاً مهرولاً. وذلك المعنى الأخير الذي أوردناه إنما يشير إليه هزُّ الكتفين والاضطباع بالرداء وأعني به ما كان يفعله ﷺ من جعل الرداء تحت الإبط الأيمن مكشوفاً رأس الكتف وإلقاء الطرف الآخر من الرداء على اليسار.. وهكذا فلا يتم الإنسان الشوط الثالث وهو بهذا الحال حتى تلج النفس البيت الحرام وهنالك تجتمع كما ذكرنا بسيد العالمين ﷺ وإمام الرسل الكرام فتقْبل معه على الله وتتم الأشواط الأربعة وهي بهذا الحال من الإقبال.. ولا يلبث الحاج أن ينتهي من الطواف سبعاً بالكعبة حتى يواجهه نسك جديد وهو:

سبعة أشواط: والصفا والمروة موضعان مرتفعان لا يبعدان كثيراً عن الكعبة بينهما منخفضٌ أشبه بوادٍ. ويبدأ الإنسان السعي من الصفا فيستقبل الكعبة ويكبِّر مُهلِّلاً بصوت مرتفع مصلِّياً على النبي ﷺ رافعاً يديه حذاء منكبيه ثم يمشي نحو المروة فإذا وصل في طريقه إلى قرب الميل الأخضر هرول مرملاً حتى يصل إلى الميل الأخضر الثاني وهنالك يعتدل في مشيته فإذا بلغ المروة صعد عليها وفعل ما يفعله عند الصفا من استقبال الكعبة والتكبير والذكر وبذلك يكون قد أتمَّ شوطاً وفي العودة من المروة إلى الصفا شوط وهكذا حتى يتم سبعة أشواط. فإذا فرغ من السعي ظلَّ في مكة محرماً، لا يحلق شعراً، ولا يقلِّم ظفراً ولا يمس طيباً ولا يلبس مخيطاً، ولا يستر رأسه ولا يلبس خفّاً ولا يقرب زوجاً حتى إذا كان اليوم الثامن من ذي الحجة خرج الحجَّاج جميعهم من مكة يقصدون عرفات.

وإذا كنا قد عرفنا المراد من الإحرام والطواف سبعاً بالبيت الحرام والغاية من تقبيل الحجر الأسود فما المراد يا ترى من السعي بين الصفا والمروة. وإلامَ يشير السعي هنا؟ ولمَ سميَّ هذان الموضعان بهذه التسمية؟ وهل الهرولة هنا ترمز إلى نفس الحال الذي يجب أن يقوم في النفس عند الطواف بالكعبة أم أن لها هنا معنى آخر؟

وفي الجواب عن هذا نقول: كل عمل من أعمال الحج وكل منسك من مناسكه له غايته وثمرته التي تختلف عن سابقهِ. فليس سعيٌ يشبه سعياً وليس طواف بمشبه طوافاً وليست الهرولة أثناء السعي بين الصفا والمروة بمؤدية إلى نفس الحال الذي نصل إليه بالمشي رملاً خلال الطواف بالكعبة وإنك إذا وصلت إلى الحقيقة واستنارت نفسك بنور الله شاهدت أن مناسك الحج إنما هي سلسلة من أعمال تتدرج بالنفس من حال إلى حالٍ أرقى من سابقه حتى تصل بها إلى الغاية التي أعدت لها فإذا ما قصَّر الإنسان بعمل من تلك الأعمال ولم يؤدِّه عالماً بما شُرِعَ من أجله فقد أخفق في سعيه ولم يصل إلى الغاية المطلوبة.

ومن اليسير عليك أن تدرك طرفاً مما نقول من الذي فصَّلناه لك خلال كلامنا عن المناسك السابقة ويزداد لك الأمر وضوحاً وتتمكن هذه الحقيقة مستقرة في نفسك بما سنذكره لك عن بقية المناسك. ولنذكر لك الآن المراد من الهرولة في السعي بين الصفا والمروة فنقول:

إذا كان الحاج خلال الطواف بالكعبة قد وصل بنفسه إلى تلك النتيجة الطيبة من الدخول إلى البيت الحرام والاجتماع بالإمام والإقبال بمعيَّته على الله وشعرت هذه النفس بذلك الجلال الإلّهي فمشت مرملةً متذللةً بين يديه تعالى فخورة بإقبالها عليه. وهنالك وبهذا الحال الذي وصلت إليه تجدها مستعدة للسعي بين الصفا والمروة. وفي السعي بين الصفا والمروة حال جديد يقوم في النفس فتشعر هذه النفس الداخلة على الله بقبول الله لها كمثل امرئ دخل على ملك ذي مهابة وسلطان عظيم فتكرّم عليه بالقبول ودعاه إليه وهنالك تراه يهرول ساعياً معبِّراً عن قبول نفسه لهذه المنّة وتلبيته لتلك الدعوة بهذا السعي والهرولة فإذا ما دنا من ذلك الملك أو كاد خفّف السرعة ومشي بتؤدة وهكذا فكل مشيةٍ بحال، ولكل هرولة وضع نفسي خاص وما يقدِّر هذه المواقف بين يدي ذي الجلال والعظمة وما يعرف قيمة هذه الأحوال التي تجري للإنسان خلال قيامه بهذه المناسك إلا امرؤٌ مؤمنٌ شهدت نفسه طرفاً من الجلال والعظمة الإلّهية فراح يغبط هذا الحاجَّ ويتمنى أن لو يكون له مثل ذلك الحال الذي أنعم الله به عليه.

والآن بعد أن ذكرت لك طرفاً عن المراد من السعي بين الصفا والمروة والهرولة بهذا السعي أحب أن أشرح لك شيئاً عن المراد من هذه التسمية فأقول: ترمز كلمة (الصفا) وتشير إلى ذلك الحال

المعنوي الذي يخالط النفس حال وقوفها في ذلك المكان. لقد قادها الطواف إلى الدخول في حضرة الله وانغمست في ذلك الجلال الإلّهي وغمرتها تلك الحال فإذا بها تتَّجه إلى الصفا وقد صفا القلب بإقباله على الله من كل ما سواه فأضحت النفس بقربها من خالقها في صفاءٍ وبحال لا ترى معه غير الله. فكانَ الوقوف على الصفا رمزاً لما حصلت عليه النفس وتعبيراً عما لازمها من حالٍ عالٍ رفيع.

فإذا خالط النفس هذا الحال وشعرت بقبول الله لها للمثول بين يديه وهرولت ساعية إليه هنالك وعند وصولها إلى المروة وما أن تقف في ذلك المكان حتى تراها قد غمرها حالٌ جديد فأصبحت ترى قربها من ذلك الجناب العالي والإلّه العظيم. فإذا الوقوف بالمروة رمز لذلك الحال الذي أضحى فيه الإنسان يرى ذاته بذاته ويشاهد قربه من خالقه وما ناله من الحظوة والزلفى بين يدي ربه بالتمسك برسوله بقلبه والغرف بواسطته من أذواق ومشاهدات الكمالات الإلّهية العليّة وينال ما ينال مما هو أهل لنواله.

ويعيد هذا الإنسان الكرَّة راجعاً من المروة إلى الصفا فإذا هو في حال أعلى من سابقه وإذا القلب بسبب قرب العبد من ربه وخالقه قد زاد صفاءً وما يزال يتنقَّل بين المكانين المذكورين ساعياً حتى يتم السبعة أشواط ولسان الحضرة الإلّهية يناديه: "تعال يا عبد الله، تعال أعطيك، تعال أمنحك، تعال أتفضَّل عليك وأكشف الغطاء عن قلبك والموعد بيني وبينك إنما هو يوم عرفه فاستعد لذلك اليوم ولتظلَّ في حال الأهبة" ولذا تراه ملازماً ما هو فيه من الإحرام والامتناع عما ذكرناه من قبل من محظورات..

وتسمى هذه الأعمال التي بيّناها من قبل من الإحرام وكذلك الطواف بالكعبة، والسعي بين الصفا والمروة "عمرة" لما فيها من إعمار القلب بالإقبال على الله وتخزين الكمالات الإلّهية بنفسه لتغدو أهلاً للمعرفة بعرفه بما اعتمر به قلبه ولتهيئته للحج بالوقوف بعرفات.

وقد أمرنا الله تعالى في القرآن الكريم أن نقرن العمرة بالحج ولا نفصلهما عنه، فليس لمن نوى الحج وأحرم به معتمراً أن يباشر بعد انتهائه من العمرة شيئاً من المحظورات حتى يتم حجه.

وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: **{وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ للهِ..}**[137].

ولعلك تقول: قد يطول الأمر بالحاج ويمتد به أياماً وأسابيع عديدة فإذا أحرم الإنسان بالحج مثلاً في أول شهر الحج، أي في مطلع شوال وأدَّى العمرة وقام بما تتطلبه من أعمال فهل يظل خلال هذه المدة الطويلة أي إلى أن يفيض من عرفات بحال الإحرام لا يلبس من الثياب إلاّ الإزار والرداء، بعيداً عن النساء مانعاً نفسه من الطيب، وقص الشعر وتقليم الأظافر إلى غير ذلك من المحظورات؟

وفي الجواب عن هذا نقول: إذا كان هذا الإنسان ممن يعرف قيمة الحج ويعلم ما سيعود به عليه من الخير فإنه يسترخص في سبيله كلَّ غالٍ، وتهون أمامه كل مشقة وما جعل الله تعالى مكة بوادٍ غير ذي زرع وما كلَّف الإنسان بما كلَّفه به من الأعمال، وما منعه مما منعه عنه من مباحات إلاّ ليضيّق على هذه النفس ويصرفها عن هذه الدنيا ونعيمها ويقطعها عما فيها من مشاغل فتتفرَّغ بالكليّة وتظل في حال الأهبة والاستعداد ليوم الحج والوقوف بعرفات يوم يجني الحاجُّ الثمرة من حجّه فتهون لديه جميع هذه المتاعب ويستعذب ما لقي من مشاق وهكذا فكلَّما غلا ثمن ما نطلبه وصَعُبَ الوصول إليه زدنا تمسُّكاً به وحرصاً عليه وقديماً قيل: ومن ملك البلاد بغير حربٍ هان عليه تسليم البلاد.

ومما يوضح لك ما نقول ما سنبيّنه لك بالمثل التالي:

---

[137] سورة البقرة:196.

أرأيت إلى الطالب الرشيد إذا دنت منه أيام الفحص يتجافى جنبه عن المضاجع، ويهجر دفء الفراش ويشيح بوجهه عن كل ما يشغله عن الاستعداد والتفرُّغ للاجتهاد ولا يعود يخطر له شيءٌ من مشاغل الحياة وملاذِّها حتى إنه ليعكف في غرفة لا يكاد يخرج منها مكبّاً على الدرس مستعداً لذلك اليوم حتى إذا ما نجح في امتحانه وظفر ببغيته استرخص جميع ما بذل من جهد ونسي ما واجهه من ضيق وتعب وما الثمرة التي ينالها هذا الطالب وما الشهادة التي يفوز بها بمعادلة ذرةً من بحر مما يناله الحاج في حجه وأين نجاحٌ من نجاح، وظفرٌ من ظفر، وسعادة أبدية لا نهاية لنعيمها من شبه سعادة آنية لا يدوم نعيمها ولا تطول فرحتها.

وهكذا فلْتصبر أيها الحاج، ولتقرن الحج بالعمرة ولا تفردْهما ولا تفصلهما عن بعضهما كما يفعل كثير من الناس إلا إذا أُحْصِرْتَ لمرض أصابك أو سبب قاهر عَرَض لك وهنالك تستطيع أن تحل من إحرامك شريطة أن تذبح رأساً من غنم أو أكثر حسب وسعتك ويسرك وكلما زدت كان ذلك أحسن وأمْلك لقربك وأضمن لتلافي ما فاتك بقدر إمكانك لتحصل لك القناعة وتُقنع نفسك بأنَّ الله راضٍ عنك فتسير معك، فهذه الذبيحة تمتِّن ثقة النفس فتُقبل على الله، وقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك فقال تعالى: **{وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ لله فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ}**.

وسمح تعالى للمريض أن يحلق رأسه قبل أن يبلغ الهديُ محله أي أن يصل ليد مستحقةٍ شريطة أن يقوم هذا المريض بأعمال بيَّنتها الآية الكريمة في قوله تعالى: **{..فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُم..}**[138].

أي إذا أَمِنَ المريض وزال ما يجده من أذى من رأسه، فهنالك يضيف إلى ما كان قدَّمه من هدي فديةٌ من صيام يصومه بقدر استطاعته وَمِكْنَتِهِ، أو صدقة يتصدق بها حسب يُسْرِهِ، أو نسك وهو دلالة وهداية نفس إلى الحق، يُقدِّمها بحسب حاله، إذ أمن، أما التمتُّع بالعمرة إلى الحج وقرْنَهَا فهذا أحسن شيء.

---

[138] سورة البقرة:196.

إلى عرفات

ويظل الناس في مكة يزكُّون أنفسهم ويُهيّئونها يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة حتى إذا ما رقَّت حُجُب هذه النفوس وألهبها الشوق إلى اللقاء في ذلك اليوم الموعود سار الحجاج في اليوم الثامن من ذي الحجة إلى منى فباتوا بها ليلتهم وفي ذلك المكان يدعو الحاج ربه قائلاً: «**اللهم هذه منى فامنن عليَّ بما مننت به على أوليائك وأهل طاعتك**».

هذا وإن اسم هذا المكان والمبيت فيه ينطوي على معاني جمَّة نوجزها لك: إن تسمية ذلك المكان بإسم "منى" عبارة عن رمز لقرب نيل الحاج أمنياته التي طالما تكبَّد من أجلها المشاق، وطالما بذل للحصول عليها الغالي والنفيس، فغداً يجني الحاج ثمرة أتعابه وما أصعب الانتظار قبل إعلان النتائج وكل إنسان يضرع إلى الله في تلك الليلة أن يحقق أمنياته، وأن ينال ما هو ساعٍ إليه ويظل هذا حاله يدعو ويتضرع إلى أن يتنفس الصبح.

وفي اليوم التاسع يقفون بعرفة ولأصواتهم عجيج يسري في الآفاق ويملأ الفضاء وكلهم يقول مخاطباً صاحب العزة والجبروت مجيباً نداء ذي الملك والملكوت وقد ناداهم ليتفضل عليهم ويسبغ عليهم من إحسانه فيلبُّون النداء بقولهم: «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك**»[139].

إنه يوم يشبه الحشر والنشر لا فضل فيه لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي، ولا لأمير على مأمور.. اليوم يتفاضل الناس بأعمالهم لا بأنسابهم ولا بألوانهم. هذا اليوم هو نيل الشهادة "شهادة أن لا إلّه إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله" شهوداً قلبياً، وفي هذا اليوم يرى حقائق ما كان ليراها من قبل، ويرى الخير كل الخير فيما كان يأمره الله به، والشر كل الشر فيما كان ينهاه عنه. وفي هذا اليوم يرى حقائق أسماء الله الحسنى متجلية على العرش بالإحسان والفضل، بالرحمة والكرم والحنان والبهاء.

هذا هو اليوم التاسع من ذي الحجة إنه يوم عرفة إنه يوم الحج يوم يجني الحاج ثمرة عمله، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله الكريم: «**الحج عرفه**»[140].

لقد بذل الإنسان حتى بلغ هذا الموقف أموالاً طائلة وتكبّد مشاق ومتاعب جسيمة وقضى في هذا السبيل شهوراً بل سنين عديدة وإن شئت فقل عمراً طويلاً يجاهد ويسعى وهو اليوم يريد أن ينال ثمرة ما بذل ويظفر بنتيجة ما قام به من أعمال.

لعمري إنه ليوم عظيم تتوقف على الفوز فيه السعادة ويتغيَّر له مجرى الحياة لا حياة الأفراد فحسب بل حياة الأمم والأجيال. والبشرى كل البشرى لمن أعدَّ نفسه لهذا اليوم الإعداد التام. ومن ظفر بما في هذا اليوم من خير فقد فاز، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلاَّ متاع.

عشرات الألوف لا بل مئات الألوف من بني الإنسان أتوا من سائر الأصقاع أو البلدان ومن مختلف الشعوب والأقوام لقد جاؤوا من مشارق الأرض ومغاربها وهم الآن جميعهم على جبل عرفات.

لقد اغتسلوا الغسل المسنون الذي علَّمهم إياه رسول الله ﷺ ووقفوا جميعهم مع إمامهم وقد حان وقت الظهيرة يستمعون إلى الخطبة التي يعلِّمهم فيها مناسك الحج من الوقوف بعرفة والإفاضة منها والوقوف بمزدلفة، إنهم يصغون إليه لئلا يفوتهم منسك من المناسك فيُحرموا من الحج وما فيه من

---

[139] (رواه أبو داود في سننه).

[140] (ابن ماجه ج2/كتاب المناسك باب (57/ 3015)

خيرات والمحروم كل المحروم من فاته الحج وأضاع هذه الفرصة. إنها لفرصة ثمينة إن فاتت صاحبها فما أبعد ما تعود.

ويؤذن المؤذن بين يدي الخطيب وترهف له مسامع الناس حتى إذا ما انتهت الخطبة وأقام المؤذن الصلاة وقف الناس جميعاً مع إمامهم يصلي بهم الظهر والعصر معاً يجمعهما جمع تقديم فيؤدي فريضة الظهر أولاً ثم يتبعها بفريضة العصر دون أن يقصر الرباعية أو أن يصلي قبل الفريضتين أو بعدهما أو يفصل بينهما بشيء من النوافل فإذا ما انقضت الصلاة وراح إلى الموقف راح الناس معه وقبلتهم جميعاً البيت الحرام ووجهتهم كافة إلى فاطر السموات والأرض وإمامهم الحق رسول الله ﷺ. إنهم جميعاً يلبون على اختلاف ألسنتهم وألوانهم بقولهم: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك" لا يقطع تلبيتهم إلاَّ تهليل وتكبير وصلاة على النبي ﷺ وتراهم عند الدعاء يرفعون أيديهم ضارعين إلى الله في افتقار وانكسار يبسطون أكفهم في نحورهم كمن يطلب العطاء والإحسان. ويمتد بهم الوقوف ويواصلون التلبية والذكر لا يفترون ولا يسكت لسانهم ولا تنقطع نفوسهم لحظة عن الإقبال على الله. وتتسامى هذه الأنفس عارجة إلى ذلك العالم المعنوي عالم الطُّهر والقدس وشهود الكمال وتتصعَّد ميول النفس وتسمع ويلذّ كثيراً الإقبال على ذي العزة والجلال وما تزال تسمو وتتسامى حتى تبلغ الأوج وتصل إلى الذروة وتصبح أهلاً للرؤية. وهنالك تميط الحضرة الإلّهية اللثام لهذه الأنفس المقبلة بمعية رسول الله ﷺ والتي أضحت بإقبالها العالي أهلاً لرؤية الكمال والجمال الإلّهي فترى كل نفس من هذا الجمال والكمال طرفاً متناسباً مع حالها وإقبالها ونصيبها من العطاء والإحسان الإلّهي نفحةٌ من النفحات وهنالك وفيما هي في هذا الحال العالي من الإقبال والاستغراق في رؤية الكمال ينطبع علىصفحات هذه النفس وعلى غير شعور منها الحق وتصطبغ من الله تعالى بصبغة الكمال. ينطبع على صفحاتها الحق من الحق جل جلاله فتغدو محبة الحق، معاينةً الحق، مصطبغة بصبغة الحق، عليمة به، مدركة الحق من كل أمر من الأمور، وفي كل عمل من الأعمال.

وتؤذن شمس هذا اليوم بالمغيب وينصرم النهار ويفيض الناس من عرفات وقد أفاض عليهم المولى الكريم من عميم فضله وإحسانه وأغدق عليهم من برّه وإنعامه وسقاهم شراباً طهوراً من تجلّيه ونوره فإذا بهذا الحاج قد أضحى إنساناً لا كغيره من بني الإنسان. لقد أضحى هذا الإنسان عالماً حكيماً، وأصبح بالخلق رؤوفاً رحيماً ونزل من الموقف وللحكمة ينابيع تتفجَّر بلا انقطاع في قلبه وفي الحديث الشريف: «**مَن أخلصَ للهِ أربعينَ يوماً ظَهرتْ ينابيع الحكمة من قلبه عَلى لِسَانِه**»[141].

لقد درس هذا الحاج في مدرسة عليا كان معلِّمه ومرشده فيها رسول الله ﷺ فوصل إلى هذا المقام العالي من الكمال الإنساني وصار أهلاً لأن يكون معلِّماً في تلك المدرسة العليا.

وعند الغروب يدفع الحجيج إلى المزدلفة وعليهم السكينة والوقار من هذا الحال العالي الذي غمر نفوسهم وتلك الزلفى التي فازوا بها من خالقهم ويذهبون إلى المزدلفة وقد غمرت أنفسهم موجة عظيمة من الشكر لله على ما منَّ به عليهم من الهداية وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في قوله تعالى: **{..فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الحَرَامِ وَاذْكُرُوه كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالّينَ، ثُمَّ أفيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ واسْتَغْفِرُوا الله إنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ}**[142].

---

[141] (الجامع الصغير/8361/ (حل) عن أبي أيوب).
[142] سورة البقرة:198-199.

إلى مزدلفة

وفي المزدلفة يصلي الحجاج صحبة إمامهم المغرب والعشاء معاً يجمعهما جمع تأخير أي أنهم يؤخرون المغرب إلى وقت العشاء ويقضون ليلتهم هذه ما بين تهليل وتحميد وتكبير لا يغمض لهم جفن فإذا طلع الفجر صلُّوا بغلس أي في العتمة وأفاضوا بالدعاء: "اللهم بحق المشعر الحرام، والبيت الحرام والشهر الحرام والركن المقام أبلغ روح سيدنا محمد التحية والسلام وأدخلنا دار السلام يا ذا الجلال والإكرام".

ويمتد بهم الوقوف بمزدلفة إلى الإسفار وعندئذٍ قبيل طلوع الشمس يذهبون إلى منى.

وقد ظفروا بأكبر أمنية كانت قد تطلَّعت إليها نفوسهم منذ أن دخلوا مدرسة الإيمان وتعرفوا إلى السيد الأعظم ﷺ. لقد فازوا بالمنى وأصبحوا من أهل التقوى وغدوا من ذوي البصائر المستنيرة بنور ربّها المشاهدة سرَّ الأوامر الإلَهية وما انطوت عليها. وهل لهذا الإنسان السامي من أمنية ومنى إلا أن يصبح مستنير القلب بنور ربّه، مصاحباً رسول الله ﷺ بنفسه، مقبلاً على الله تعالى بمعيَّته، أليست أكبر أمنية لهذا الإنسان معرفته بكمال الله وصحبته لرسول الله واستنارة قلبه بنور الله ورؤية ما انطوت عليه آيات الله ليكون من بعد ذلك كله دليلاً للخلق على الله وداعياً إياهم إلى الله.

وفي منى يرمون جمرة العقبة بعد طلوع الشمس سبع رميات بسبع حصيات كانوا قد حملوها معهم كما فعلها رسول الله ﷺ من مزدلفة ويقطعون التلبية عند أول حصاة. يأخذ أحدهم الحصاة بين السبابة والإبهام من اليد اليمنى ثم يقذف بها إلى موضع الرمي من الجمرة ويكبر بكل حصاة يرميها فيقول: "بسم الله الله أكبر رغماً للشيطان وحزبه ورضاءً للرحمن اللهم اجعله حجاً مبروراً وذنباً مغفوراً وسعياً مشكوراً".

ولعلك تقول: آن لي أن أفهم المراد من رمي الجمار في سؤال كنت قد سألته من قبل عند بدء الكلام عن الحج ومناسكه.

وفي الجواب على هذا السؤال أقول: لا يظنن امرؤ أن الحاج إنما يرمي الشيطان فالشيطان لا يؤذيه مثل ذلك وما هو ساعتئذٍ بمحجوز هناك وما ذلك الرمي إلاَّ إعلان عن شعور وتعبير عن حال نفسي ونسك يرمز إلى حقيقة تمثلت في نفس هذا الإنسان وإليك بعض التفصيل لهذا النسك: لقد شهدت نفس هذا الإنسان المستنيرة بنور ربها بما تكرم الله به عليها في عرفات ورأت حقيقة الدنيا وما انطوت عليه شهواتها الدنيّة من أذى وشقاء ولذلك تراه عندما يرمي الحصاة يقول بلسانه الله أكبر ونفسه تقول ما أكبر فضلك عليَّ أيها الرب الكريم لقد هديتني بهداك وتفضلت علي بمعرفتك وشرفت قلبي بحب رسولك ونبيك وأريتني مكائد الشيطان وحزبه وأنا أعلن معاداتي للشيطان وحزبه بما ألقي به من حصيّات.

إنه يرمي الحصاة ولسان حال النفس يقول: هكذا عاديتك أيها الشيطان الرجيم وعاديت كل بعيد عن الله فمالك عليَّ بعد اليوم من سبيل.

ذلك بعض ما ندركه من هذا النسك الذي علَّمنا إياه رسول الله ﷺ في رمي الجمار وذلك مما نفهمه من قوله ﷺ عند الرمي إذ يقول: "بسم الله الله أكبر رغماً للشيطان وحزبه ورضاء للرحمن" وإذا انتهى الحجاج من الرمي صلّوا مع إمامهم في منى صلاة عيد الأضحى وما صلاة العيد في هذا الموطن إلا إعلان عن شكر الإنسان لخالقه على ما منَّ به عليه في الحج من عظيم الهداية وسابغ الفضل وبالغ الإحسان والنعمة. ومن أسعدُ حالاً من هذا الحاج الذي تفضل عليه مولاه بهذا الفضل ومَنْ أكبر نعمة ممن لاذ بجناب فاطر السموات والأرض وأضحى في كنف هذا الرب العظيم والإلَه الرحيم يشاهد الجمال ويرتشف الكمال ويشاهد بنور الله أسرار الشريعة وحكمة الأوامر فيتعلَّم تأويل الأحاديث ويرى فضل الله على العباد وإحسانه السابغ على سائر المخلوقات.

والله أكبر.. كلمة تلهج بها ألسنة الناس قبل صلاة العيد وبعدها وفي أيام العيد الأربعة بعد كل صلاة مفروضة حتى عصر اليوم الأخير منه يرددها الإمام والمقتدون في صلاة العيد عدة مرات وتتردَّد على لسان الخطيب في خطبته بعد صلاة العيد.. يتذكر ويذكِّر بها المصلين.

وإلى صلاة العيد الأضحى أشارت الآية الكريمة التي أوردناها آنفاً في قوله تعالى: **{..وَاذْكُرُوه كَمَا هَداكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ}**[143]، إذ كان ضالاً لا يعرف سبب مجيئه إلى الدنيا، والآن بحجِّه صار إنساناً يعمل المعروف.

[143] سورة البقرة:198.

ذبح الهدي

ثم يذبح الحجاج الأضاحي في منى ومن بعد ذلك يحلقون رؤوسهم لما روي عنه ﷺ أنه رمى ثم ذبح ثم دعا بالحلاق ومن بعد الحلق يحلُّ للحاج كل شيء حظر عليه خلال الإحرام كتقليم الظفر ولبس المخيط من الثياب وغير ذلك إلاَّ النساء ومما يشير إلى ذبح الأضاحي في الحج ما ورد في الآية الكريمة من قوله تعالى: **{..فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ..}**[144].

قال تعالى: **{ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُم وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتيقِ}**[145].

وتشير كلمة (فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ) إلى شاة أو عدة شياه أو بدنة أو بقرة والبدنة هي الجمل أو الناقة.. وكلما كان الهدي أعظم وأغلى ثمناً كانت ثقة النفس بعملها أكبر وكان إقبالها على الله تعالى أكثر وبالتالي كان عطاؤه وتفضله على هذا الإنسان أكبر والناس على درجات.. قال تعالى: **{وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا..}**[146].

إن الله تعالى غنيٌ عن الإنسان وعن عطائه وأضحياته ولكنه يريد له السعادة الكبرى والتقوى "الاستنارة الدائمية". قال تعالى: **{لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوى مِنْكُم..}**[147].

ومن أجل هذا جعل الله البدن من شعائر الله، إذ قال تعالى: **{وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ..}**[148].

أجل إن تلك المناسك لا يعظمها إلا المتقي لأنه لا يشعر ولا يرى فوائدها إلا من اتَّقى. قال تعالى: **{ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}**[149].

وفي ذبح الهدي معونة كبرى وإنعاش لأهل تلك البلاد المقدسة وذلك من الناحية الاقتصادية وإن شئت فقل في تأدية هذا النسك إحياء لأهل تلك البلاد وتشجيع لهم على البقاء في تلك البقعة للقيام بمعونة الحجاج وخدمتهم وفي هذا ما فيه من الإبقاء على فريضة الحج وإقامة هذه العبادة الهامة مدى الدهر.

ألا ترى أن الله تعالى جعل الكعبة في وادٍ غير ذي زرع ليقطع علائق الإنسان من هذه الدنيا بالكلية فإذا شد الرحال إلى هذه الأرض المقدسة لم تكن لهذه النفس من غاية إلا الوصول إلى ذلك الهدف السامي الذي ذكرناه من قبل وبلوغ تلك الدرجة العالية من التقوى والمعرفة.. ولو أن الله تعالى لم يشرع هذا النسك من ذبح الأضاحي أو أننا تصدقنا كما ارتآه أناس بثمن هذا الهدي على الفقراء لكان ذلك سبباً في فقر أهل تلك البلاد وبالتالي سبباً في إقفار تلك البقعة المقدسة من السكان ونفصل ذلك بعض التفصيل من هذه الناحية لتعلم حكمة الله تعالى فيما أمرنا به من مناسك فنقول:

إن تجار الأغنام يربُّون الأغنام ويسيمونها في أودية مكة وجبالها ويجلبون الكثير منها إلى تلك الأرض طمعاً في البيع في موسم الحج وبهذا تجد اللحم وكذلك اللبن ومشتقاته من جبن وسمن وزبدٍ موفورة لدى أهل مكة بثمنٍ بخس ويسر وبصورة دائمة خلال العام ولو أننا جارينا من يقول مرتئياً

---

[144] سورة البقرة:196.
[145] سورة الحج:29.
[146] سورة الأحقاف:19.
[147] سورة الحج:37.
[148] سورة الحج:36.
[149] سورة الحج:32.

توزيع ثمن الهدي على أهل مكة بدلاً من الذبح مدعياً أن آلافاً مؤلّفة من الأضاحي تذبح في منى ولا يستفيد منها أحد وأن توزيع المال والحالة هذه خير من الذبح.

أقول: إذا نحن أخذنا بهذا الرأي نكون قد قضينا على هذه الفريضة وكنا سبباً في إبطال هذه العبادة الجليلة إذ أطعمنا أهل مكة وجعلناهم في يسر أياماً معدودة وحرمناهم وأفقرناهم عاماً كاملاً فتجار الغنم بسبب عدم الذبح أضحوا لا يوردون أغنامهم إلى تلك المناطق وبذا يظلّ أهل هذه البلد غير ذي الزرع في شقاء وضيق من العيش وحرمان من الرزق ولا نجد لنا إذا شددنا الرحال إليها مأوىً ولا معيناً.

هذا طرف يسير من فائدة هذا النسك وتوضيح للمراد من الأوامر الإلّهية وبيان لحكمة هذا الرب الحكيم في أوامره التي شرعها لهذا الإنسان وإشارة إلى أنه لا يجوز للإنسان أن يشرع أو يأتي بتعليمات تخالف ما رسمه تعالى له في القرآن الكريم وقديماً قال الفقهاء: "لا اجتهاد فيما ورد فيه النص". أي: نص صريح من القرآن.

أما قال تعالى: **{وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلهُ نَاراً خَالِداً فيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ}**[150].

من هذه الزاوية الصغيرة تستطيع أن تدرك أن خروج الناس في عصرنا عن التشريع الإلّهي هو الذي رمى بالبشرية في هذه المآزق الحرجة التي تئن منها الآن وهو الذي وصل بها إلى هذا الشقاء والحياة المعقدة المهددة بالدمار والفناء وما سار امرؤ على رأيه وخالف كلام الله في قضية من القضايا إلاَّ وخسر وشقي ومن يطع الله ورسوله فقد رشد إلى سعادة الدنيا والآخرة وهدي إلى صراط مستقيم. فقوله تعالى: **{..فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ..}** قرنهما، وهذا أحسن شيء. **{فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ}**: عليه أضحية، بعد عرفه يذبح. **{فَمَن لَم يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَامٍ فِي الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَمْ يَكُن أَهْلُهُ حَاضِرِي المَسْجِدِ الحَرَامِ}**: فأهل مكة ليس عليهم ذبح، لأن الذبح كما أشرنا لأهل مكة ليتوسَّعوا، وعليها لا يجوز تبديل الذبح بالمال لأنه خلاف الآية، ذلك لأن الذبح يساعد التجار على جلب الغنم فيظلُّ أهل مكة في رخاء طوال العام فيتمكَّنوا من خدمة الحجيج. **{واتَّقُوا اللهَ..}**[151]: العبرة للتقوى.

ونتمُّ الآن لك ما يجب أن يفعله الحاج بعد ذبح الهدي في منى فنقول:

---

[150] سورة النساء:14.

[151] سورة البقرة:196.

طواف الإفاضة

إذا انتهى الحاج من الذبح وحلق شعره نزل إلى مكة وطاف بالكعبة سبعاً غير أنه لا يرمل في هذا الطواف. ولعلك إذا عرفت حال الحاج في طوافه الأول وحاله الآن بعد وقوفه بعرفة ووصوله إلى ما وصل إليه من حال رفيع تدرك السبب في اختلاف الطوافين وأقرِّب عليك الخطوة فأقول: حال الحاج في طوافه الأول حال المتذلل بين يدي ربه المقبل بانكسار وضراعة عليه ولذلك تراه يرمل في طوافه ذاك إظهاراً لخضوعه بين يدي خالقه وتسارعه إلى لقاه ورضاه.

أما وقد تفضّل عليه ربه وأناله سُؤْله لذلك تراه لا يرمل في هذه المرة بل يطوف شاكراً فضل الله تبدو عليه السكينة والوقار اغتباطاً بما نال.

ومن ذاق هذه الأحوال عرف سرَّ هذه الأوضاع في كل طواف.. ويسمى هذا الطواف الثاني طواف الإفاضة أو الزيارة وهو ركن من أركان الحج.

وما طواف الإفاضة كما ذكرنا إلاَّ إعلان عن شكر العبد لخالقه، واعتراف بفضله تعالى، وتمسُّح بأعتابه وإشعار للنفس بأن دخولها في حضرة الله ووقوفها في ذلك الجناب العالي أضحى ميسوراً لها في كل وقت وحين من بعد أن أفاض تعالى ما أفاض عليها من العلم والمعرفة وبعد أن رأت ما رأت من الرحمة الإلَهية وشهدت ما شهدت من الفضل الإلَهي الشامل ففي كل صلاة وإن شئت فقل بمجرد أن يغمض الإنسان جفنه عن هذا العالم وبأقل من لمح البصر تراه يطوي الكون كله ويغدو في حضرة الله ماثلاً بين يديه مشاهداً كماله فانياً في شهود رحمته وحنانه.

التحلل الأكبر

والآن إذا أتم الحاج هذا الطواف الثاني بالكعبة فقد تم حجه وحصل له التحلل الأكبر فيحل له النساء والصيد وجميع ما كان ممنوعاً من محظورات الإحرام.

الرمي وحكمته

وبعد طواف الإفاضة الذي تحدثنا عنه الآن يرجع الحاج من مكة إلى منى ولا يبيت في مكة ولا في الطريق لأن ذلك هو السنة وعلى الحاج أن يقتفي أثر رسول الله ﷺ في كل نسك من مناسكه إن أراد لنفسه حجاً صحيحاً.

وفي منى يبيت ثلاث ليالٍ مقصراً الرباعية من الصلوات وإليك ما يفعله في هذه الأيام المعدودات:

إنه في اليوم الأول من أيام التشريق وهو ثاني أيام العيد يذهب بعد الزوال وقبل صلاة الظهر لرمي الجمار الثلاث في ثلاثة مواضع يبدأ في الجمرة الأولى وهي التي تلي مسجد الخيف ويرمي عندها وهو مستقبل القبلة سبع حصيات يكبر مع كل حصاة فإذا أتم الحصيات السبع فإنه يقف عند الجمرة ووجهه إلى القبلة فيهلل ويكبر ويحمد الله تعالى ويثني عليه ويصلي على النبي ﷺ ويسأل الله تعالى حوائجه ويدعو طويلاً بقدر قراءة سورة البقرة ثم يأتي الجمرة الوسطى فيفعل مثلما فعل عند الأولى ويرفع يديه بسطاً خلال الدعاء عند الجمرتين، ثم يأتي جمرة العقبة فيفعل مثلما فعل في الجمرتين الأولى والوسطى إلاَّ أنه لا يقف عندها بعد الرمي بل ينصرف منها فوراً إلى رحله فإذا كان اليوم الثاني من أيام التشريق وهو كما نعلم ثالث أيام العيد يرمي الحاج الجمار الثلاث كما فعل أمس وهو مخير بين الاكتفاء بالرمي في يومين أو البقاء إلى اليوم الثالث من أيام التشريق والقيام بالرمي كما فعل في اليومين السابقين.

أما إذا غربت الشمس فيكره له أن ينفر ليلاً إلى مكة بل يبيت ليلة وفي الغد يرمي الجمار الثلاث ثم ينفر مع الحجيج إلى مكة وفي كلا الحالين سواء نفر إلى مكة ثاني أيام التشريق أو مد الوقوف بمنى إلى اليوم الثالث لا ينفر إلا ومعه ثقله أي متاعه لأن في ذلك تشويشاً لقلبه ورسول الله ﷺ يقول مشرعاً وبفعله دوماً نقتدي إذ يقول بهذا الخصوص: «**المرء مع رحله**»[152].

وقد أشارت الآية الكريمة إلى هذا النسك الذي يقوم به الحاج وأعني به رمي الجمار في أيام التشريق وذلك في قوله تعالى: **{وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}**[153].

ويتبيَّن لك من خلال هذه الآية الكريمة ما كنا أوضحناه من أنه يجوز الاكتفاء بالرمي في اليومين الأولين كما يجوز مد الرمي إلى اليوم الثالث لكلا الأمرين يحل لكن ذلك مشروط بالتقوى، فمن اتقى فلا إثم عليه في التعجُّل في يومين كما لا إثم عليه في التأخر.

أما من لم تحصل له التقوى فما وجَّه الله تعالى له خطاباً في هذا الخصوص ليشعر نفوسنا ويعرفنا بما للتقوى من شأن وليبين لنا أن ثمرة الحج الصحيح هي التقوى وما الرمي كما ذكرنا إلا تعبير النفس المشاهدة بعين البصيرة عما عزمت عليه من معاداة الشيطان وعدم الالتفات لوساوسه، وما السبع حصيات التي يرميها الحاج في الأماكن الثلاثة إلاَّ إشارة لإغلاق أبواب جهنم السبعة **{لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ..}**[154] إذ أن الحاج قد غدا إنساناً بصيراً يرى مداخل الشيطان فلا يستطيع الشيطان الولوج إلى قلبه من إحداها، أما قال ﷺ: «**اتقوا السبع الموبقات**»[155].

---

[152] (لابن سعد في الطبقات الكبرى).
[153] سورة البقرة:203.
[154] سورة الحجر:44.
[155] (رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، رواه أبو داود والنسائي).

أما من حج ولم تحصل له التقوى ولم تستنر نفسه بنور ربه فعلام يعاهد أم علام يرمز في رميه؟ إنه لا يرمز إلى شيء وقلَّد تقليداً أعمى، إذ لم يصل من حجه إلى شيء.

وهكذا فعلى من أراد الذهاب للحج أن يعدَّ نفسه قبل موسم الحج وأن يسلك سبيل التقوى بالإيمان الذاتي من قبل، والحج كما رأينا مدرسة عليا للتقوى لا ينال الشهادة فيها إلا مؤمن ومن يؤمن بالله يهد قلبه. قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، دَعْواهُمْ فيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وتَحيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمينَ}**[156].

أما وقد أنهى الحاج من رمي الجمار في أيام التشريق ونفر إلى مكة مع الحجيج فعليه أن يأتي الأبطح وهو مكان بين منى ومكة ويسمى أيضاً بالمخصَّب وعليه أن ينزل به ساعة لما روي أن الرسول ﷺ نزل به ومن بعد ذلك يدخل مكة فيطوف طواف الصدر.

---

[156] سورة يونس:9-10.

طواف الصدر (الوداع)

وهو آخر طواف في الحج ويسمى طواف الوداع يودّع به الحاج البيت الحرام وإن شئت فقل يودع قلبه فيه على الدوام مقبلاً منه على الله بمعية سيّد الأنام.. وطواف الصدر يكون بسبعة أشواط لا رمَلَ فيها فإذا انتهى من الطواف صلى ركعتين ثم يأتي زمزم فيشرب من مائها ويصب على وجهه ورأسه ثم يأتي الملتزم وهو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود فيضع صدره وجبهته عليه ويتشبَّث بأستار الكعبة ويدعو..

وما هذه الأعمال إلاَّ رموز وإشارات فما المقصود من وضع الصدر والجبهة على الملتزم، المُلْتَزَمُ ذاته، وما الغاية من التشبث بأستار الكعبة الأستار ولا الكعبة إنما المقصود الضراعة إلى الله والتشبث بجنابه العالي طلباً لدوام هذا الفضل وعدم انقطاع هذا الحاج عن رسول الله ﷺ الذي به الصلاة الدائمة، أي دوام الاتصال بالله مدى الحياة.

وعند عودة الحاج من حجه ورجوعه إلى بلده يُعبِّر بلسان يلهج بشكر الله وحمده معلناً عما استكنَّ في نفسه من المعاني العالية قائلاً: «**آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده**»[157].

تلك هي نواحٍ وَلُمَحٌ من حِكَم الأعمال التي يمارسها الحاج في كل نسك من المناسك يدركها ويتحقق بها المؤمن التقي فيعرف فضل الله تعالى عليه ويدرك مكانة الحج وما انطوى عليه من حكم عالية وأسرار رفيعة وتقليب للنفس في مواطن الإقبال وتدرج وعروج بها في معارج القرب من الله وإيراد لها موارد العلم والتحقق بحقائق الشرع والتعرف إلى حكمة الأوامر الإلَهية. ومن ليست له سابقة إيمان صحيح وتقوى فليس يدرك من الحج ومناسكه إلا أقوالاً لا يفقه لها معنى وأعمالاً مبهمة لا يعرف لها حقيقة فإذا ما انتهى من حجّه وعاد إلى بلده عاد إلى ما كان عليه من سوء في المعاملة وانتهاك لمحارم الشريعة وتلك هي حالُ من لم يبْنِ أعماله على تقوى من الله وإيمان. قال تعالى: **{أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلى تَقوى مِنَ الله وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ واللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالمينَ}**[158].

---

[157] صحيح البخاري صحيح مسلم 980/2

[158] سورة التوبة:109.

الأحكام المتعلقة بالمرأة

ومما يتصل بهذا البحث وإن شئت فقل من ضروراته أن نتكلم عن أحكام تتعلق بالمرأة في الحج فنقول:

تختلف المرأة في الحج عن الرجل في أمور منها: أنه لا يجوز لها أن تذهب إلى الحج إذا لم يكن معها زوجها أو أحد المحارم. والمحارم هم الذين لا يجوز لهم نكاحها على التأبيد وهم الأب والابن والأخ والعم والخال وابن الأخ أو الأخت أو الصهر زوج البنت وقد جاء في الحديث الشريف عن الرسول ﷺ أنه قال: **«لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم ولا يدخل عليها رجل إلاَّ ومعها محرم فقال رجل يا رسول الله إني أريد أن أخرج في جيش كذا وكذا وامرأتي تريد الحج فقال اخرج معها»**[159].

وعن النبي ﷺ أنه قال: **«لا تُسافر المرأةُ ثَلاَثَةَ أيام إلاَّ مَعَ ذي مَحْرَم»**[160].

ومما تختلف المرأة فيه عن الرجل الإحرام فقد ورد عن ابن عمر قال:

«إحرام المرأة في وجهها وإحرام الرجل في رأسه»[161].

ولعلك تقول: كيف يجوز للمرأة أن تكشف وجهها في الحج والنظر إلى المرأة سبب لزرع الشهوة في القلب؟

وفي الجواب عن هذا نقول:

كما لا يباح للرجل النظر إلى النساء في غير الحج كذلك لا يجوز له النظر إليهنَّ في الحج بل هو أشد حرمةً لما فيه من الأذى والضرر وتحويل القلب عن الله واشتغاله وانصرافه عن المقصد الأسمى الذي شرع الحج من أجله وإذا كان نص القرآن قد جاء عاماً في عدم إباحة النظر إلى النساء ولم يقيّد ذلك بحال من الأحوال فمن البديهي أن المرأة لا يجوز لها إبداء وجهها في الحج للرجال. وما المراد من جعل إحرام المرأة في وجهها إلاَّ إشعار لها بأن تتباعد عن الأنظار خلال حجّها كل التباعد فلا يراها الرجال ولا ترى الرجال إطلاقاً ولذا جعل مقياس هذا التباعد أن تصبح في جو تجد فيه من الحرية ما يكفل لها كشف الوجه وهكذا فالنساء لا يَطُفن ولا يسعين في الحج مختلطات مع الرجال ولا على مرأى منهم ولكلٍ دوْره في الطواف وإذا ما مرَّ بهن رجل بالطريق للحج فعليهن أن يسدلن نقابهن وإلى ذلك أشارت الأخبار فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: **«كان الركبان يمرّون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات فإذا حاذَوا بنا أسدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها فإذا جاوزونا كشفناه»**[162].

وعن صفية بنت شيبة رضي الله عنها قالت: **«رأيت عائشة طافت بالبيت متنقبة»**[163].

إلى غير ذلك من الأخبار، وطوافها هذا لم يكن في الحج أبداً، إنما في عمرة.

وكما ورد في السيرة الحلبية أن رسول الله ﷺ أقسم على الرجال أن لا يخرج أحدٌ منهم من خيمته فترة طواف النساء طوال الليل حتى شروق الشمس، وما ذلك إلاَّ لفصلهم كلٌّ بوقته.

---

[159] (صحيح البخاري /كتاب الحج/ 1729).

[160] (الجامع الصغير /9779/ (حم ق د) عن ابن عمر (صح).

[161] (رواه سعيد بن منصور وابن حزم في المحلى 79/5).

[162] (رواه أبو داوود ج2 /كتاب المناسك/ باب (34 1833).

[163] (رواه ابن سعد (8/ 49).

أمَّا ما نراه اليوم وما نسمع به من عدم تقيُّد النساء بأوامر الشريعة فذلك ناشئ عن جهلهن بتلك الأحكام وذهابهن إلى الحج دون معرفة أو تقيّد بما بينه رسول الله ﷺ.

ومما تختلف فيه المرأة عن الرجل أيضاً أنها لا ترملُ في الطواف بالبيت ولا تهرول في السعي بين الصفا والمروة ومن ذلك أيضاً أنها لا تطوف في حال الحيض حتى تطهر أما بقية المناسك فتؤديها كالمعتاد.

هذه لمحات عن الحج بيَّنا فيها طرفاً من أعمال هذه الفريضة الهامة وحكمتها ومن أراد المزيد من الشرح فليرجع إلى المطولات من كتب الفقه ومن أراد الحج الصحيح فلْيستعد له بالإيمان الصحيح.

أثر المثل الأعلى في سلوك الإنسان

ولعلك تقول: أجدك كلما عرضت لك مناسبة وكلما انفسح أمامك مجال تنتهز الفرصة وتغتنمها لتتكلم عن صلة النفس بنفس رسول الله ﷺ وإنك دوماً لتؤكد وجوب محبته وارتباط النفس به ﷺ تأكيداً يكاد يجعل هذه المحبة وهذا الارتباط فرضاً ضرورياً وأمراً لازماً فهل من آية في القرآن الكريم أم هل من حديث شريف ورد عنه ﷺ يبيِّن ضرورة هذه المحبة وهذا الارتباط أم أنها أذواق تتذوقها وأشواق اعتلجت في نفسك وحلّت بها لا تبرحها فجعلت تتحيَّن الفرص وتوجد المناسبات لتعبِّر عنها وتبثُّها؟ إن كثيراً من الناس في عصرنا قلَّ أن يتعرضوا لهذه الناحية أو يعرفوا شيئاً عنها حتى إنهم ليستغربون منك هذه الأحاديث التي تسوقها بهذا الخصوص استغراباً شديداً فهل من أثارةٍ من علم أم هل من مستند إلى كتاب أو سنة يشير إلى هذه الناحية وينير أمامنا السبيل تجاه هذه النقطة الهامة؟

وفي الجواب على هذا السؤال وتوضيحاً لهذه الناحية أقول: ما أوصل كثيراً من الناس إلى ما أوصلهم إليه من بُعُد ذريع عن طريق الفضيلة والكمال وما أوقعهم فيما أوقعهم به من تدهور مريع في الدين والأخلاق إلا عدم تقديرهم وتعظيمهم لرسول الله، إذ من القوانين العامة والسنن الكونية الثابتة التي يؤيِّدها علم النفس وعلم الاجتماع أن فقدان المثل الأعلى يصل بالإنسان حتماً شاء أم أبى إلى هذا التدهور وهذا الانحطاط.

شواهد من التاريخ

وكفاك بالتاريخ في هذا المجال برهاناً واضحاً وشاهداً عدلاً فإنك إذا ذهبت توازن بين بعض الناس في عصرنا وبين أولئك الصحابة الكرام الذين عاصروا وصاحبوا رسول الله ﷺ وإن شئت فقل إذا ذهبت توازن بين أحوال المؤمنين الذين أحبُّوا رسول الله ﷺ وعظَّموه ووقَّروه وما وصلوا إليه من سموٍ في منازل الفضيلة والكمال، وبين المنافقين الذين ابتعدت نفوسهم عن هذا الحب السامي ووقعت في الجفاء والبعد عن الله لتبدَّى لك الفرق جلياً واضحاً ولعرفت عظيم شأن هذه المحبة وضرورتها.

لقد كان الصحابة الكرام أبطالاً وقواداً عظاماً وكانوا علماء حكماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، وكان عصره ﷺ كما وصفه بعض المؤرخين عصر الأبطال، فبمَ سما يا ترى هؤلاء المؤمنون من الرجال؟ أليس ذلك إلا بحبهم العظيم لرسول الله ﷺ حتى قال في ذلك من قال: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، أما عرَّفنا ﷺ بذلك القانون النفسي الذي تخضع له نفوس جميع المحبين في الرفقة والصحبة والارتباط، إذ يقول ﷺ: «**المرءُ مع من أحب**»[164].

وإذا كان المرء مع من أحب فهو متصل النفس به مرتبط القلب، وإذا كان رسول الله ﷺ بسبب حبه العظيم لله دوماً مع الله، فكل محب لرسول الله بحسب هذا القانون النفسي الذي قرره ﷺ وبحسب التبعية دوماً مع الله.. فكلَّما ذكرت رسول الله ﷺ الذي هو دائماً مع الله، إن كنت محباً له حقاً صرت مع الله ودخلت نفسك معه في حضرة الله وتلك هي علامة حبك الصادق له ﷺ وما في ذلك من شك أو ريب لأن المرء مع من أحب.

أدلة وجوب محبته ﷺ من الكتاب والسنة

[164] متفق عليه عن ابن مسعود، صحيح البخاري (ج7 ص113).

هذا وقد أكَّد لنا تعالى في كتابه الكريم ضرورة محبة رسول الله ﷺ وبين لنا أن محبته ﷺ يجب أن تحتل في نفوسنا المكان الأول بعد محبته تعالى فما الآباء والأبناء، ولا الأزواج والعشيرة والإخوان، وما الأموال والتجارة ولا المساكن الجميلة بأحب إلى نفس المؤمن من الله ورسوله، وجهاد في سبيله. قال تعالى: **{قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَونَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ وَجِهَادٍ في سَبيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأتيَ اللهُ بِأَمْرِهِ واللهُ لاَ يَهدِي الْقَوْمَ الفَاسِقينَ}**[165].

وأشارت السنة النبوية المطهَّرة مُعرِّفة بمعنى هذه الآية الكريمة في حديث ورد عن رسول الله وهو ﷺ أعلم الناس بكلام الله وأفقههم بما انطوى عليه كتابه الكريم، إذ يقول ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»**[166].

أوليست هذه الآية الكريمة تقرر أن حب رسول الله يجب أن يسمو في نفوسنا فوق كل محبوب حتى من أنفسنا التي بين جنوبنا؟ وهل تراني بعد أن قدَّمت لك ما قدمت من وقائع وحقائق دامغة وآيات كريمة وأحاديث شريفة، هل تراني مُغالياً إذا أكدت لك ضرورة محبة رسول الله ﷺ وقررت أن رابطة المحبة بين النفس المؤمنة وبين نفس رسول الله الزكية الطاهرة فرض لازم وضرورة بالغة، وإذا كان كثير من الناس في عصرنا قد غفلوا عن هذه الناحية الهامة وبذلك بعدوا عن حضرة الله فأصبحوا لا يجدون للصلاة طعماً ولا للإيمان حلاوة ولا للعبادة معنى، أفلا يجب علينا أن نعرفهم بهذا ونرشدهم إليه، وهل من الأمانة أن نسكت عن هذا العلم الشريف السامي ورسول الله ﷺ يقول: **«من كتم علماً عن أهله ألجم يوم القيامة لجاماً من نار»**[167].

ألا يجب علينا أن نبين للناس أن طعم الإيمان وأن حلاوة الإيمان لا يمكن أن يجدها الإنسان إلاَّ إذا كان محباً لرسول الله؟

أما قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلاَّ لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»**[168].

أما أمرنا تعالى وأمر المؤمنين جميعاً بأن يصلُّوا على رسوله الكريم فقال تعالى: **{إنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْليماً}**[169].

أوليست هذه الصلاة على النبي إلا صلة نفوسنا بتلك النفس الزكية الطاهرة، أما قال تعالى: **{وَمِنَ الأَعْرابِ مَنْ يُؤمِنُ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سيُدْخِلُهُمُ اللهُ في رَحْمَتِهِ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيمٌ}**[170].

{..فَالَّذينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ}[171].

أوليست صلوات الرسول وإن شئت فقل هذه الصلات النفسية بنفس رسول الله قربة عند الله؟ وهل يمكن لنفس من الأنفس أن تصلِّي على رسول الله حقيقة الصلاة عليه إذا هي لم تكن محبة لرسول

---

[165] سورة التوبة:24.

[166] (صحيح البخاري ج1 رقم /15/ عن أنس (ر).

[167] (الجامع الصغير /8988/ عن ابن مسعود).

[168] (الجامع الصغير /3415/ (حم ق ت ن ه) عن أنس (صح).

[169] سورة الأحزاب:56.

[170] سورة التوبة:99.

[171] سورة الأعراف:157.

الله ﷺ لأن طبيعة النفس وجِبِلَّتها أن تهوي دوماً على ما تحب ومن تهوى، أومعظمة له وموقرة. وهل المحبة يا ترى ألفاظ تقال وأوصاف توصف وادعاء يدعى، أم أنها أذواق يتذوقها المحب وأحوال تخالط النفس وتلازمها فما يستطيع المحب المشوق انفكاكاً عنه ﷺ ولا تحوُّلاً، بل أن نفسه لتسموا وتتسامى فتعرج بمعيته ﷺ في معارج القدس والطهر والكمال لحضرة القدوس معدن الإحسان والكرم ومن ذاق هذه الأحوال عرف عظيم شأنها ورفيع قيمتها، وما يعرف ما نقول إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

تجد الناس يبحثون عن السعادة ويسعون وراءها فهذا ينشدها في المال يبذل الجهود الطائلة ليستكثر منه ويستزيد ورسول الله ﷺ يقول: «**تعس عبد الدرهم وعبد الدينار**»[172].

فما يزيد عبد الدرهم والدينار ماله إلاَّ تعباً وشقاءً وكلما ازداد وراء جمع المال سعياً ازداد عن السعادة بعداً.. وهذا ينشد السعادة في السلطان والمنصب العالي، وكم مرةٍ هلك عن ذي السلطان سلطانه ولم يتمتع إلا قليلاً بمنصبه فأضحى حزين القلب نادماً وما أصعب العيش بعد فقدان العز إلى المذلة ثم وبالموت يفقد دنياه بأسرها، وذاك ينشدها في الصحة والحياة المترفة وأيام الصحة في الحياة قلَّ أن تبقى وتستمر وتدوم.. وهكذا كل امرئ ينشد السعادة في شيء والحقيقة أن السعادة لا تأتينا مما حولنا أو ما يحيط بنا إنما السعادة حال معنوي ينبعث في نفس الإنسان ذاته، وما يفوز بالسعادة حقاً إلاَّ مؤمن بالله محبٌ لرسول الله ﷺ، إذ بهذه المحبة وهذا الارتباط بتلك النفس المقبلة على الله تدخل النفس كما رأينا من قبل على الله، وهل من سعادة تجدها النفس إلا بإقبالها على الله ودخولها في حضرته وأنسها بجنابه؟ وأي شيء أحب إلى النفس من الله وهو خالقها وموجدها؟ وهل من جميل أجمل منه تعالى وهو مبعث الجمال وأصله، وما جمال الكون كله إلاَّ ذرَّة أضفاها تعالى من جماله على هذا الكون فأضحى كل ما تراه فيه جميلاً؟

وإذا كان الإنسان بدخوله في حضرة الله تعالى يشهد طرفاً من الرحمة الإلّهية والعطف والرأفة والحنان ويرى أن كل ما تسوقه إليه هذه الذات العليَّة المحبَّة واليد العطوفة الرحيمة إن هو إلا محض فضلٍ وخير وإحسان، أفلا تراه بعد هذه المشاهدة يرضى بكل ما يسوقه الله إليه، وفي الحديث الشريف: «**وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس**»[173].

وإذاً فلا سعادة إلا بالرضا، رضا المحب لحضرة الله بكل ما يسوقه إليه وجميع ما يعامله به ولا يوصلك إلى هذه المنزلة إلاَّ حب الله وحب رسوله.

---

[172] جامع الأصول /10 303/.

[173] (الجامع الصغير /118/ (حم ت هب) عن أبي هريرة).

قانون ارتباط الأتباع بزعيمهم:

وتسألني عن طريق محبة رسول الله ﷺ وتحب أن تتعرف إلى الأصول التي يوصلك التمسك بها إلى هذه المحبة السامية، وتقول ما من شيء في هذا الكون إلا وله سنةٌ وقانون وأصول وما دامت سعادة الإنسان مرتبطة بمحبة الرسول فما الطريق إليها وما الأصول الواجب اتباعها فأقول:

ما من طريق ولا وسيلة تصل بك إلى حب رسول الله وتقديره إلاَّ إذا انطوت نفسك على قبس من بعض صفاته أو طرف من أخلاقه، إذ من السنن الكونية لهذه النفس الإنسانية ومن القواعد العامة التي أصبحت اليوم معروفة في علم النفس الاجتماعي أنه لا ينشأ الإرتباط النفسي بين الزعيم والأتباع إلا إذا مثَّلهم جميعاً في منازعهم وتفوّق عليهم في اتجاهاتهم.

فإذا لم يكن كل واحد من الأتباع متخلِّقاً نوعاً ما بخلق من أخلاق قائده وإذا لم تنطوِ نفس التابع على قليل أو كثير من إحدى صفات زعيمه فلا يمكن أن يتولد هذا التقدير ولا أن يحصل هذا الارتباط بالمحبة بين النفسين. وإذا كان هذا الارتباط يتزايد وينمو كلما ازدادت هذه الصفة في التابع ظهوراً وتمكناً وزاد فيها من ذلك الزعيم قرباً ودنواً فلا ريب أن تحقق التابع بأكثر من صفة واحدة يجعله أكثر لذلك المثل الأعلى تقديراً وأشد به ارتباطاً وحبّاً. هذه قواعد وقوانين لا تختلف ولا تتبدل وكل شيء في هذا الكون إنما يعمل ضمن سنة وقانون ولن تجد لسنة الله تبديلا.

أمثلة من التاريخ وسيرة الصحابة الكرام:

وبناءً على ما قدمناه نقول: ما أحب الصحابة الكرام رسول الله ﷺ إلا بما فيهم من صفات الكمال التي اجتمعت جميعها فيه ﷺ ومن كان في صفةٍ من هذه الصفات أكثر نصيباً من غيره كان أكثر لرسول الله تقديراً وتعظيماً وبالتالي كان أكثر حبّاً له ﷺ وأشد به ارتباطاً. وكذلك من فاق غيره بالتحلي بأكثر من صفة واحدة كان له سبقه ودرجته، ولكل منهم في ذلك الحب السامي والارتباط منزلة ولكل منهم درجة.

لقد جمع رسول الله ﷺ الكمالات جميعها وانطوت هذه النفس الكريمة العالية على المحامد كلها وكان اسمه "محمداً" فالحياء والمروءة والرأفة والرحمة، والعطف والحنان والشفقة، والعلم والحلم والحكمة، والجرأة والإقدام والشجاعة، والجود والبذل والسخاوة، والعدل والإباء والعفة، وحسن تدبُّر الأمور وجميل التصرف بها والسياسة.. وهكذا عدد ما شئت من صفات القائد الشجاع والبطل المغوار، والسياسي المحنك، والقائد المجرَّب، والعالم الفقيه، والسيد الحكيم، والإنسان الرؤوف الرحيم والحاكم النافذ الرأي البصير، إلى غير ذلك من الصفات العالية التي لو تحلَّى امرؤٌ بنصيب من إحداها لنال من العظمة والشأن العالي بقدر ما فيه منها. هذه الصفات كلُّها تجمَّعت وتجمع إلى جانبها كل ما يمكن أن يتصف به إنسان من صفات الكمال، كل ذلك تجمَّع في رسول الله ﷺ. وكان في ذلك أسبق مخلوق وأعظم إنسان وبذا استحق ثناء الله تعالى عليه إذ يقول سبحانه في كتابه الكريم: **{وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيمٍ}**[174].

وهكذا كل امرئٍ يريد أن يحب رسول الله ﷺ حباً صادقاً وكل من يريد أن يتولد في نفسه التقدير والتعظيم لذلك السيد العظيم ما عليه إلا أن يتحلَّى بصفة من صفات الكمال حتى يتحقق التناسب في

[174] سورة القلم:4.

الصفة بينه وبين رسول الله ﷺ وهنالك يحبه بنسبة ما نال من صفة عالية، وما سوى ذلك من غير ماصفةٍ إن هو إلا مجرد أقوال، ولا يعرف الفضل إلا ذووه ولا يحب أهل الكمال إلا أهل الكمال.

الإيمان الحقيقي هو السبيل الموصلة إلى محبة رسول الله ﷺ:

أما وقد عرفنا هذه النقطة الهامة وهذا المبدأ الأساسي فلابد لنا من أن نجيب على السؤال الآتي وهو قول من قال: ما دام الحب الحقيقي لرسول الله لا يتولد في أنفسنا إلا إذا اتصفت بصفة من صفات الكمال، فما هي الطريق التي نسلكها حتى نحصل على إحدى هذه الصفات الكاملة أو عدد منها؟

وفي الجواب على هذا نقول: أصل الكمال ومصدره الأساسي هو الله سبحانه وتعالى. وما من صفة عالية انطبعت في نفس أو حلَّت بها إلا وهي من ذلك الأصل والمصدر العالي وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله الشريف: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمِه وأحبوني لحب الله إياي**»[175].

فتعظيم النِّعم يؤدي لتعظيم المنعم جلَّ وعلا وذلك بالتأمُّل ببدائع الإكرامات الإلَهية لك في ثنايا الكون ما يجعلك تحب المنعم وتقبل عليه فإذا أنت أقبلت على الله بكلِّيتك واتجهت إليه بقلبك وتوثقت هذه الصلة المعنوية بين النفس وبين خالقها فهنالك ينطبع في نفسك شيء من الكمال وتصطبغ به. قال تعالى: {**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً**}[176].

وتتساءل كيف تحصل هذه الوجهة إلى الله تعالى وكيف تتم وهل باستطاعة الإنسان متى شاء أن يتجه ويقبل فأقول: إن هذه الوجهة إلى الله تعالى وهذا الإقبال عليه لا يكون ولا يتم إلا إذا كانت هذه النفس واثقة من إحسانها مطمئنة إلى أن الله تعالى راض عنها بعملها. هذه حقيقة ثابتة وقانون من قوانين النفس لا يتغير ولا يتبدل وما دام الإنسان لا يجد هذه الثقة ولا يشعر بهذه الطمأنينة فليس بمستطيع أن يلتفت إلى خالقه أو يقبل عليه مهما حاول وأراد.

أرأيت إلى الإنسان ذاته يقف للصلاة أحياناً بين يدي ربه فلا يجد لصلاته حلاوة. ولا يشعر فيها بصلة ولا يرى فيها إقبالاً، ويقف أحياناً أخرى فما أن يكبّر تكبيرة الإحرام حتى تسري نفسه عارجةً في معارج القدس بأسرع من لمح البصر حتى إنه قد يشعر بهذه الصلة قبل الصلاة وبعدها وتصلُ به هذه الصلة في حال الصلاة إلى أعلى درجاتها. ويتساءل هذا الإنسان باحثاً عن السبب. فإذا هو في حاله الأول حال انقطاعه عن تلك الصلة قد بدرت منه بادرة سوءٍ أو صدرت منه هفوةً لم يكن راضياً عن نفسه فيها، وعلى الرغم من كون ذلك قد صدر منه من غير قصد وسوء نية، لكن خجله من عمله هو الذي حال بينه وبين الوجهة إلى ربه فشلَّ قوة هذه النفس وحجبها عن خالقها فإذا هي في جفاء البعد وإذا هي في حالٍ من عدم الإقبال لا ينفك عنها ما دامت خجلى من عملها إلاّ أن تخرج من هذا الحال بعمل طيب تقوم به وفي الحديث الشريف: «**وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُها**»[177].

وإذا هو في حاله الثاني حال الإقبال على الله قد أدَّى خدمةً طيبة أو قام بعمل صالح فإذا للنفس من ثقتها برضاء الله عنها ما جعلها في قرب وصلةٍ وإقبال. وتسألني عن السبيل الذي يدفع بالإنسان إلى العمل الصالح ويحجزه عن الوقوع في السيئات فأقول: لقد قرن القرآن الكريم العمل الصالح في مواضع شتى وفي عدد كبير من الآيات بالإيمان لنعلم أن الإيمان هو سبيل الصالح من الأعمال وهو السبيل والسبب الوحيد لاجتناب السيئات. فليس يصلح عمل الإنسان وهو لا يستطيع اجتناب السيئات إلاَّ إذا وصل إلى الإيمان.

---

175 (أخرجه الترمذي عن ابن عباس.)

176 سورة البقرة:138.

177 (رواه الترمذي في سننه في كتاب البحر /55/).

وهكذا فالإيمان الحقيقي هو النقطة الأولى التي يكون منها الانطلاق وهو وحده الموصل إلى الاستقامة والبعد عن الوقوع في المعاصي والموبقات وبالتالي هو الآخذ بيد هذه النفس إلى الصلاة الحقيقية المنطوية على الصلة بالله تعالى حيث تستقي النفس الكمال وتصطبغ به وتتحلى بكريم الصفات وهنالك تجدها تحب رسول الله ﷺ وترافقه بلا انقطاع.

لعلك تقول: ذكرت من قبل أن أصحاب رسول الله ﷺ لم تسمُ نفوسهم ذلك السمو العالي، ولم تبلغ منازل الكمال الرفيعة إلاَّ بسبب حبهم لرسول الله ﷺ. فلما أردت بيان الطريق إلى محبة الرسول ﷺ قلت لا يستطيع الإنسان أن يحب رسول الله حبّاً حقيقياً إلا إذا كانت نفسه متحلِّية بنصيب من صفات الكمال، فهل الكمال النفسي يا ترى هو الذي يصل بالإنسان إلى محبة رسول الله أم أن محبة رسول الله هي التي تسمو بالنفس إلى منبع الكمال وفي الجواب عن هذا نقول:

إذا كان القارئ يظن أن بين القولين اختلافاً وتناقضاً فليس بينهما شيء من ذلك أصلاً فأنت لا تستطيع أن تحب رسول الله ﷺ إلاَّ إذا استقيت من الله تعالى بصلاتك المبنية على استقامتك وإيمانك طرفاً من صفة من صفات الكمال فإذا أنت وصلت إلى محبَّته ﷺ واستغرقت نفسك في هذه المحبة فعندئذٍ تتدرج في الكمال إلى أسمى المنازل وتبلغ فيه أعلى المراتب إذ تدخل بصحبته ﷺ فتشرب من ذلك المنبع العالي والبحر اللامتناهي، وتعالى الله عن كل مثال، شرباً متواصلاً وتسمو نفسك سمواً كبيراً وتصل إلى حالٍ ما كنت لتصل إليه في يومٍ من الأيام أو تصبح من أولئك الرجال لولا توسلك بمعيته ﷺ واستشفاعك به إلى الله تعالى. تلك هي ثمرة محبة رسول الله ﷺ وذلك بعض ما نفهمه من حث الله تعالى إيانا على محبة رسوله الكريم وأمرنا في محكم كتابه بالصلاة عليه، وما هذه الصلاة على رسول الله ﷺ إلا صلة النفوس المؤمنة به لتدخل بمعيته على الله فتستقي منه تعالى كمالاً وترتقي في هذا الكمال من حالٍ إلى حال أعلى، رقياً لا يتناهى.

حكم زيارته ﷺ

من السنن المؤكدة قصد المدينة المنورة مهاجر الحبيب الأعظم سيدنا محمد ﷺ لمشاهدة الروضة المطهَّرة التي هي روضة من رياض الجنة وزيارة سيد الخلق المبعوث رحمة للعالمين ولكافة الناس بشيراً ونذيراً لقوله ﷺ: «**مَن حج البيت ولم يزرني فقد جفاني**»[178].

وفي حديث آخر «**من وجد سَعَة ولم يفد إليَّ فقد جفاني**»[179].

إن هذه الزيارة للسيد الأعظم ﷺ بعد مماته كزيارته في حياته فقد ورد عنه ﷺ: «**من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي**»[180].

«**وحياتي خير لكم ومماتي خير لكم**» لأن وظيفته القلبية دائمية أبدية ﷺ.

أدب الزيارة

وينبغي لمن أراد زيارة الرسول ﷺ أن يكثر من الصلاة والسلام عليه في مسيره إلى تلك الزيارة الشريفة فإذا لاحَ له حرم المدينة المنورة وبدت له أشجارها أكثرَ من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ. فإذا شارف المدينة فعليه أن يدخلها ماشياً إن أمكن ثم يغتسل ويتنظف ويلبس أحسن الثياب ويتطيَّب ظاهراً، حتى إذا بلغ المسجد النبوي فعل ما يفعله المرء حين يريد الدخول على العظماء فوقف قليلاً كالمستأذن ليهيء نفسه لذلك المقام ويحضِّر قلبه، وعند دخوله المسجد النبوي الشريف يقصد الروضة المطهرة وهي ما بين قبره ﷺ ومنبره فيصلي ركعتين تحية المسجد النبوي بجانب المنبر والأوْلى أن تكون في المحل الذي كان يصلِّي فيه رسول الله ﷺ ثم يدعو بما يشاء معدّاً نفسه للمثول بين يدي رسول الله ﷺ إعداداً قلبياً ثم ينهض للزيارة.

فائدة الزيارة وغايتها

ترى لماذا حث رسول الله ﷺ على هذه الزيارة وما هو المقصود منها أم ماذا يجد الإنسان في زيارته وماذا يجنيه من الخير؟

وفي الجواب على هذا نقول: للإنسان نفس وروح وجسد، فالروح هي ذلك النور الإلّهي الساري في الجسد والذي بسببه تقوم الحياة فينمو ويتحرك ويباشر الأعمال. أما النفس فهي ذات الإنسان المعنوية الشاعرة مستقرها في الصدر. وأشعتها سارية بالأعصاب في جميع أنحاء الجسم وهي العنصر الأساسي في هذا الإنسان فهي التي تغضب وترضى، وهي التي تخاف وتخشى، وهي التي تسر وتفرح، وتتنعَّم وتتألَّم وتحب وتكره، وهي التي توصف بالكفر والإيمان، وهي التي تُجزى وتُحاسب على الأعمال، وهي التي ترقى وتترقى مُتنقِّلة في محبة الله تعالى من حال إلى حال أعلى، وكلما ازدادت النفس تقديراً لخالقها زادت إقبالاً عليه سبحانه وبالتالي اكتسبت منه سمواً ورفعةً وكمالاً. وهي عنصر نوراني لا يصيبه البلى ولا تمتد إليه يد الفناء. وما الجسد إلاَّ ثوب النفس ولباسها فهو الحامل لها وبواسطته تباشر أعمالها، وعن طريق الحواس تتعرَّف إلى ما حولها فإذا ما فارقت الروح الجسد ومات هذا الإنسان لبست النفس الحال الذي كانت وصلت إليه في الحياة الدنيا ورافقت

---

[178] (رواه الدارقطني).

[179] (أخرجه ابن عدي والدارقطني في غرائب مالك وابن حيان).

[180] (رواه الدارقطني وغيره).

إمامها في الكعبة إلى الحضرة الإلّهية، والكعبة هي مركز انبثاق أشعة النفس ومصدر لسريان نورها كالشمس جرمها في السماء وأشعتها سارية في كل ناحية من أنحاء المعمورة تملؤها بالنور والضياء، وما هذا إلاَّ مثال يقرب لك الحقيقة والنفس المؤمنة أسمى بكثير وأرفع مما يمكن أن يتصوره إنسان فحالها بعد الوفاة لا يختلف عن حالها بالدنيا من حيث الإقبال على الله بل إنها ترقى في هذا الإقبال لحظة فلحظة وآناً بعد آن. ونفس المؤمن التقي وبالطبع كل نبي عند الموت تنزع ثوبها الجسدي للقبر وتُحَلِّق بجنات ربها ومركز انبثاقها إنما يتم من الكعبة "شرّفها الله برسله الكرام وبالأبرار" وشعاع من نور هذه النفس يشرف على جسدها الذي كان مطية أعمالها الطيبة العلية في دنياها فهو للذكر والتذكُّر فقط لا مفعولية له عندها، بل السيطرة غدت بالكلية للنفس هذا ولا ترافق النفس جسدها بالقبر إلا النفس المعرضة الكافرة لقوله تعالى: **{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ، إلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ، فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ}**[181].

وهكذا إذا أنت ذهبت لزيارة الرسول ووقفت أمام مقامه الشريف تسلم عليه فنفسه ﷺ تشاهدك من الكعبة ومن جناتها العلية. وتراك وتسمع سلامك، وإن كنت مؤمناً حقاً وممن وصل إلى حال نفسي رفيع استطعت أن تعاين ذلك وتسمع منه ﷺ نفسياً ردَّ السلام عليك بعد قدوم نفسه الشريفة الطاهرة للقاء من اشتاق لرؤياها "ومن طلبك وجب عليك تلبيته".

ولذا إذا دنوت من مقامهﷺ فقف بعيداً عنه بقدر أربعة أذرع مقابلاً رأس النبي ﷺ ووجهه الأكرم متأدباً غاية الأدب خاشعاً وقل بصوت خافت: "السلام عليك يا سيدي يا رسول الله، السلام عليك يا سيدي يا حبيب الله، السلام عليك يا أشرف رسل الله، السلام عليك يا سيد المرسلين، السلام عليك يا خاتم النبيين، السلام عليك وعلى أهل بيتك الطيبين الطاهرين صلى الله عليك وعلى آلك وأصحابك وأزواجك وذريتك وسلم تسليماً".

جزاك الله عنَّا وعن أمتك خيراً فلقد بلَّغت الرسالة وأدَّيت الأمانة وأوضحت الحجة وكشفت الغُمَّة، ونصحت العباد، وجاهدت في سبيل الله حق الجهاد، وقد يغلب عليك أثناء الزيارة الحال النفسي من حيث صلة نفسك بنفس رسول الله ﷺ ويتعطل اللسان عن الكلام ويختلط شعاع هذه النفس الزائرة بنفس رسول الله ﷺ الزكية الطاهرة فتقبل بمعيتها على الله وتعرج بصحبتها في معارج القدس الرفيعة وتحصل لها الرفقة الحقيقية والشفاعة وتغدو نفسك مع نفسه ﷺ واقفة في حضرة الله فانية في شهود كمال الله فغدت النفسين نفس واحدة وتلك هي حال من أحوال الشفاعة الدنيوية التي ما فاز بها مؤمن إلاَّ وغدا إنساناً إنسانياً ومؤمناً كريماً وعالماً حكيماً وإلى هذه الشفاعة، وإن شئت فقل إلى هذه الرفقة والصحبة المعنوية في إقبال النفسين معاً على الله خلال هذه الزيارة الشريفة، أشار ﷺ بقوله: **«من زار قبري وجبت له شفاعتي»**[182].

فهذه شفاعة صحبة ورفقة في الإقبال بمعيته ﷺ على الله والائتمام به في الوجهة إلى الله، تبدأ بك منذ زيارته هذه وتمتد بك حتى آخر لحظة من لحظاتك في هذه الحياة بل تلازمك ولا تفارقك إلى ما بعد الوفاة فما تزال نفسك مرافقة مصاحبة تلك النفس السامية حتى تقف للحساب بين يدي الله. قال تعالى: **{..يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ}**[183].

---

[181] سورة المدثر:38-40.

[182] (الدارقطني ج2 / ص278).

[183] سورة التحريم:8.

تلك هي الغاية من زيارتك لرسول الله ﷺ وفي الحقيقة لا يعرف قدر هذه الزيارة إلاَّ امرؤٌ آمن بالله حق الإيمان. يتوِّج حجَّه بتلك الزيارة العالية ويسمو بنفسه إلى منازل المؤمنين الصادقين.

وعندما يريد الزائر العودة إلى بلده يودِّع المسجد النبوي الشريف بركعتين ثم يسلِّم على رسول الله ﷺ بما يحضره من الكلمات التي تقدمت في الزيارة فإذا ما أتمَّ زيارته وغدت نفسه مرافقة لرسول الله ﷺ فانية في محبته ﷺ مصلِّية عليه حقيقة الصلاة متشفعة بتلك النفس الزكية الطاهرة مقبلة بمعيتها على الله فعندئذٍ ينصرف إلى بلده وقد فاز بأحسن غنيمة وعرف المراد من حث رسول الله ﷺ على هذه الزيارة الشريفة.

والحمد لله الذي عرَّفنا هذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.